الفصل الخامس

المدارس الاجتماعية فى روسيا

ظهرت فى روسيا مدارس اجتماعية كثيرة لا سيما بعد الثورة البلشفية . بيد أن التفكير الاجتماعى فى روسيا مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتاريخ السياسى . وهو فى الوقت نفسه أسير إلى حد كبير لطرق معينة فى التفكير ولمنطق خاص ومسير وفق أهداف محددة . وهذه الخاصة معروفة عن روسيا ، إذ تكاد تنفرد عن بقية بلاد العالم بهذه الظاهرة[1]

ويمكننا أن نلخص أهم اتجاهات التفكير الاجتماعى فيما يأتى :

١ ــ **المدرسة الفوضوية** : وهى المدرسة التى انتشرت أفكارها قبيل الثورة وأدت تعاليمها إلى تقويض دعائم القيصرية وإتاحة الفرصة لانتشار الماركسية ثم قيام النظام البلشفى. ويطلق بعض المفكرين الغربيين على هذه المدرسة اسم « المدرسة العدمية «Nihilism» نظر لأنها تنادى بإنكار القوى المسيطرة على المجتمع : فلا قانون ولا دين ولا دولة فليس ثمة إلا قانون العلم وسلطان العقل . وأشهر فلاسفة الفوضوية ثلاثة هم : باكونين وكروبتكين وتلستوى . وسنتكلم عنهم بالتفصيل فيما بعد ..

٢ ــ **المدرسة الماركسية** : دخلت تعاليم ماركس روسيا عندما ترجم كتابه رأس المال إلى الروسية وتشيع بها المفكرون الثوريون لا سيما وقد مهد الفوضويون لقبولها جملة وتفصيلا . فقد كانت النظم الاقتصادية السائدة هدفاً لانتقادات مريرة ألمع إليها المفكر « بوزوسكوف Pososkhov » فى كتابه « الفقر والغنى » فلما قويت الماركسية ، اعتبرت المادية التاريخية الجدلية هى القاعدة التى أرسى عليها البلاشفة تحليلهم لطبيعة الحياة الاجتماعية وفلسفة الوجود الاجتماعى . وقد تطورت هذه المبادئ إلى حد ما فى نظر البلاشفة المعاصرين أمثال « لينين وستالين وخروشيشيف » وخرجت عن الصورة التى رسمها ماركس ومن أشهر أنصار هذه المدرسة العالم «Kovalevsky» وهو من علماء الاجتماع البارزين . فقد وضع كتابين عنوانهما : علم الاجتماع ، وعلماء الاجتماع المعاصرين .

---

(1) Hecker; Russian Sociology (London 1934).

٣ – مدرسة الدراسات الاتنجرافية والانثروبولوجية . واهتمت هذه المدرسة بدراسة أصول الأجناس وخصائصها ومهادها والانشعابات التى تفرعت إليها . واهتمت بصفة خاصة بدراسة الجنس السلافى فى نشأته ومقوماته وإبراز خصائصه وقدراته . وأوقفت قسطاً من نشاطها على دراسة اللغات والأغانى الشعبية والقصص الدارجة والعادات وما إليها من مختلف مظاهر الفولكلور [1] .

٤ – مدرسة الدراسات القانونية . وتعتبر من أقوى المدارس الاجتماعية فى روسيا . وأشهر علمائها «Korkunon; Leo Pytrazktsky Gurvitch; Pokrovsky; Danilevsky.»

٥ – مدرسة الدراسات السياسية . واهتم أنصارها بدراسة علاقة روسيا بالعالم الخارجى وخاصة دول أوربا ، ودراسة المذاهب السياسية وخاصة النظام الشيوعى ونقد الرأسمالية والإمبريالية والديمقراطية السياسية وما إليها .

٦ – المدرسة التطورية والعضوية . وأنصارها متأثرون بفلسفة داروين ونظرياته فى تنازع البقاء والصراع والانتخاب الطبيعى وبقاء الأصلح . وخير من يمثلها العلامة نوفيكوف .

٧ – مدرسة فلسفة التاريخ . وتخصص أنصارها فى دراسة تاريخ الحياة الاجتماعية ومراحل تطورها ومحاولة وضع قوانين تفسر هذا التاريخ وتربط بين مراحله . وأهم ممثليها « لافروف Lavrow » الذى ترك كتابين بعنوان « رسائل تاريخية ، وبحث فى تاريخ الفكر » والعلامة ميخائيلوفسكى فى كتابه « ما هو التقدم ؟ » : والعلامة « بترازسكى » فى كتابه « القانون والعرف » وينسب لهذه المدرسة أكبر الفضل فى معالجة موضوعات هامة من علم الاجتماع والتمهيد لنشأته واستقلاله .

٨ – الاتجاهات الوضعية فى علم الاجتماع . وهى مدارس علم الاجتماع بالمعنى الصحيح . وخير من يمثلها « ماكسيم كوفالوسكى «Kovalewsky» الذى يمثل علم الاجتماع الروسى أصدق تمثيل ، ودى روبرتى «De Roberty» الذى تتلمذ على «كونت» ثم خرج بنظرية وضعية جديدة ، وسروكن «P. Sorokin» الذى اهتم بالديناميك الاجتماعى وعلم الاجتماع الثقافى . ولو أن العلامة سروكن ينسب الآن إلى أمريكا أكثر من انتسابه إلى روسيا بعد أن هاجر ومنح الجنسية الأمريكية وشغل فى جامعاتها أرقى وظائف الأكاديمية [2] .

(1) N. Marinus; Ethnography; Folklore and Archeology in Soviet Russia.

(2) Gurvith : Moore; La Soc. du 20 e Siecles (1945).

دراسة تحليلية لاشهر علماء روسيا

سأتناول فى هذه الفقرة دراسة طائفة من أشهر علماء روسيا وأبعدهم أثراً وأوفرهم إنتاجاً فى ميدان الدراسات الاجتماعية .

١ – باكونين «Bakunin» :

يعتبر باكونين مؤسساً لحركة فوضوية واسعة النطاق انتشرت بين جماعات البروليتاريا فى أوربا فى أواخر القرن التاسع عشر . وظهر نشاطه بشكل واضح فى ميدان التنظيم والتحريض وعمل التكتيك فقد كان ماهراً فى تنظيم خطط الجمعيات السرية وتوجيهها وكان يقظاً شجاعاً يتفانى فى أداء رسالته . غير أن بحوثه كان ينقصها الترتيب والتنظيم .

أقام باكونين نظريته فى الفوضوية على أسس علمية أهمها :

١ – التطور الإنسانى يسير من الحالة التى كان السلوك الإنسانى فيها خاضعاً للعوامل الطبيعية ومقيداً بالدوافع الحيوانية إلى الحالة التى تسود فيها الغايات المثالية ويخضع فيها السلوك الإنسانى لأحكام الجزاء الاجتماعى .

٢ – تاريخ الإنسانية هو عبارة عن محاولة ترويض حيوانية الإنسان ، وتهذيب دوافعه تهذيباً مطرداً والعمل على نمو إنسانيته نمواً متكاملا .

٣ –تعتبر السلطة السياسية والملكية الخاصة والدين نظماً طبيعية بالنسبة للمراحل الأولى من تطور الإنسانية ، لأنها ترتبط إلى حد ما برغبات الإنسان ومخاوفه الطبيعية .

فالملكية الخاصة تنمى اهتمام الإنسان بالخبرات المادية ، والسلطة السياسية تدعم هذه الملكية عن طريق الالتزامات والعقود ، والدين يؤدى الوظيفة نفسها بما يقرره من ثواب وعقاب . ويرى «باكونين» أن هذه النظم مقضى عليها بالزوال بفعل القوانين الطبيعية التى يسير طبقاً لها التطور الإنسانى .

وحارب باكونين بشدة وحماسة جميع أشكال الحكم السياسى حتى ما كان قائماً منها على الانتخاب. لأن الاستبداد فى نظره لا يكمن فى شكل الدولة وإنما فى جوهرها «Despotism lies not in the form of the state but in its essence.» وأعظم الأفكار الديمقراطية

(1) Coker : Recent political thought, p. 203 sqq.

شأناً لا يجدى نفعاً فى تغيير هذه الخاصة الجوهرية الكامنة فى طبيعة الدولة . وجهل الشعوب وعدم خبرتها يجعلانها عاجزة حيال ماتتخذه الطبقة الأقوى من تنظيمات اقتصادية . هذا ، إلى أن هذه الطبقة تستطيع أن تسير أى شكل من أشكال الجهاز السياسى وفق مصلحتها الخاصة .

وفى ضوء هذه الاعتبارات نستطيع أن نقرر أن الدوافع الاقتصادية هى التى حدت بالمفكر « باكونين » إلى المناداة بإلغاء الدولة والقضاء عليها بوصفها نظاماً يسىء إلى الشئون الاقتصادية . لأن الدولة تقوم على نظام الملكية وتعمل على تخليده ، ونظام الملكية بما ينطوى عليه من امتلاك وسائل الإنتاج يبقى دائماً جماهير الشعب خاضعة لأصحاب رأس المال . فهدف كل نظام سياسى إذن هو أن يؤكد استغلال الملاك لطبقات العمال وتنظيم هذا الاستغلال .

وعلى الرغم من أن السبب فى قيام السلطة السياسية هو الإبقاء على حالة اقتصادية تقوم على القهر ، غير أن عيبها الأساسى فى نظر « باكونين » يبدو فى مظهريها الخلقى والعقلى . فالدولة من الناحية الأخلاقية تحط من قيمة الأفراد لاسيما فى هذا الطور من الحضارة ويستوى فى ذلك الحاكمون والمحكومون لأنها تتصرف على أساس القوة والقهر وليس على أساس الإقناع والعلم . فالأوامر التى تصدرها الدولة تحل محل إرادة المواطن وتطغى على ماله من أحكام خاصة . فى حين أن أخلاقية السلوك الإنسانى ومعقوليته ليس لهما من معنى إلا عندما يقوم الفرد بأفعال خيرة معقولة ويعترف الفرد نفسه بهذه الخيرية والمعقولية . وكل فعل يؤدى عن طريق الإلزام والإملاء ليس له أية قيمة أخلاقية أو عقلية. وفى ضوء هذا الاعتبار تتجه الدولة بالضرورة إلى الهبوط بالمستويات الخلقية والعقلية عند الأفراد الذين يخضعون لسلطانها . ومن ناحية أخرى نجد أن السلطة السياسية تؤدى إلى تبديد القيم الأخلاقية لدى من يشاركون فى أعمالها . فالمركز السياسى أو الإدارى الذى يشغله الفرد من مراكز الدولة يخلق فى نفسيته شعوراً بالسمو والعظمة لا يمت بأية صلة لطبيعته ولا يقوم على أساس صحيح من حيث التمييز بين الأفراد أخلاقياً . هذا إلى أن مثل هذه المشاعر التى تخلفها الوظيفة السياسية تطغى على عاطفتى التعاون والأخوة وتقيم قدراً من الامتيازات الصناعية وتوسع من الهوة التى تفصل بين طبقات الشعب وتضحى بمصالح الفرد الخاصة فى سبيل المصلحة العامة المزعومة . وعن هذا

الطريق غير السوى تجعل الدولة من الأقلية مستبدين وأنانيين ، ومن الأكثرية خداماً خاضعين [١] .

والملكية الخاصة ، التى هى أساس وجود الدولة من ناحية ونتيجة لها من ناحية أخرى ، هى أساس الشرور المادية والأخلاقية . فهى تلقى بملايين العمال بين أحضان العوز الاقتصادى ، والعمل المضنى ، والجهل والجمود الروحى والاجتماعى وتزود القلة من الأغنياء بالنعيم المفرط ، وبالفرص الخاصة التى تتيح لهم الحصول على أوفر قسط من اللذة المادية والمتعة الفنية والعقلية .

والدين كذلك شر خطير لأنه يعمل على حماية نظم شريرة من ناحية ، ويتعارض مع طبيعة الإنسان الخيرة من ناحية أخرى. هذا ، إلى أن الطبقة الممتازة سياسياً واقتصادياً مستغلة استغلالا دنيئاً لحماية ما يدعونه من سمو غير طبيعى . والدين من شأنه كذلك أن يصرف اهتمام الإنسان ومجهوداته عن الشئون الهامة التى لاغنى عنها فى حياة الإنسان الواقعية . وهو ينمى خيال الفرد وأوهامه وخرافاته وقابليته للاستهواء ، ويشل عقله عن التفكير الخالص ، ويفقده ميزة التبصر الحر . ولذلك ينبغى أن تحل المعرفة العلمية محل العقيدة الدينية ، وتحل العدالة الإنسانية الحقة فى هذا العالم محل التصوير القائل بوجود عدالة إلهية فى العالم الآخر .

ويرى « باكونين » أن أفضل الوسائل التى ينبغى الالتجاء إليها لتحقيق الأهداف الفوضوية هى التطور والثورة معاً ، فللفوضوية أساليبها العلمية كما أن لها أساليبها الثورية . ويقصد باكونين « بالتطور » أن تيارات الحوادث والوقائع تنساب بشكل آلى نحو هدف الفوضوية ووظيفة الفوضويين هى أن يزيلوا ما يعوق هذا التيار ، وذلك بالقضاء على جهل الناس بالقوانين الطبيعية التى يخضع لها التطور الاجتماعى ، وبالقضاء كذلك على النظم الاجتماعية والسياسية التى تقف حجر عثرة فى سبيل هذا التطور . ويقصد باكونين « بالثورة الفوضوية » تقويض كل ما يفهم عادة من كلمة « النظام العام » وغنى عن البيان أن مثل هذا التقويض يتطلب كثيراً من وسائل العنف ولا يمكن تحقيقه عن طريق الاقتراع السرى «The Ballot» ولا مناص من سفك الدماء نتيجة لحمق أولئك الذين سيحاولون فى تعصب مقاومة الثورة ؛ ونتيجة كذلك لدوافع الانتقام الطبيعية التى ستدفع بالأفراد — عند بدء قيام الثورة — إلى الأخذ بالثأر من الطبقة الظالمة المستبدة التى غلبتهم على أمرهم فيما سبق .

(1) Coker : Recent political thought, p. 204.

وكان « باكونين » يتمنى عدم وقوع مثل هذه الحوادث الدامية ؛ غير أن الثورة الفوضوية يجب أن تنطوى على أقصى مظاهر العنف والقوة الضرورية لتسريح فرق الجيش والبوليس وإلغاء المحاكم وحل الجمعيات التشريعية والمصالح الإدارية وهدم الكنائس وإبطال مظاهر الملكية الفردية .

ولكن إذا قضينا على الملكية الخاصة وعلى الدولة فما هى النظم التى تحل محلها ؟ يذهب « باكونين » إلى أن الرفاهية الإنسانية لا تتحقق بالصورة المنشودة بمجرد القضاء على السلطة السياسية وعلى نظام الملكية . لأن العلاقات الإنسانية ومظاهر الحياة الاجتماعية فى حاجة إلى تنظيم مستمر ؛ ولذلك كان يعارض من يناقشه مناقشة تفصيلية فى تنظيم مجتمع المستقبل ، وكان يقول إن كل تقدم فى تطور الإنسانية وكل تحرر للإنسان من الخضوع لقوى بيئته الطبيعية ومن الاسترقاق لغرائزه الحيوانية سيؤدى إن آجلا أو عاجلا إلى التعاون الوجدانى بين الرفقاء وإلى التضامن الاجتماعى بين مختلف الهيئات والجماعات .

فالحرية الإنسانية إذن لا معنى لها خارج المجتمع ؛ لأن الحرية ليست مجرد تصور سلبى بمعنى أنها لا تدل فحسب على انعدام التحكم الخارجى فى إمكانيات الفرد ؛ بل تدل أكثر من ذلك على قدرة الكائن العاقل على الاستجابة لدوافعه التى تميزه عن غيره من الكائنات . فحرية الفرد الحقيقية تقوم من ناحية على اعتراف الآخرين بهذه الحرية ؛ وتقوم من ناحية أخرى ، على احترام مماثل من جانب الفرد لحرية الآخرين ، فالرجل الناسك وآكل لحوم البشر أو الرقيق لا يمكن اعتبارهم أحراراً من الناحية الأخلاقية ؛ لأن الحرية ليست عزلة ولكنها تبادل ؛ وليست انفصالا ولكنها ارتباط واتحاد . وحرية كل فرد هى أن يرى صورة إنسانيته (أى صورة حقوقه الإنسانية الطبيعية) منعكسة فى شعور إخوانه »

Liberty is not a matter of isolation but of mutuality, not of separation but of Combination, for every man it is only the mirroring of his humanity in the Consciousness of his brothers.[1]

ويطلق « باكونين » على ذلك « مبدأ التضامن » وهو المبدأ الذى بفضله يشعر الإنسان بكامل حريته حينما يرى الآخرين من حوله يتمتعون بنفس الحرية .

وهكذا أراد « باكونين » أن يقيم على أنقاض الدولة مجتمعاً تختفى فيه جميع الطبقات

(1) Coker, Recent political thought p. 206, 207.

وجميع مظاهر السلطة . ويسمح فيه لكل فرد بدون تمييز من حيث الجنس واللون والقومية والعقيدة أن يعمل وأن يتمتع بثمار عمله على أساس من المساواه . ويقوم هذا المجتمع الحر على أساس من التعاقد والتجمع الاختياريين ؛ على خلاف المجتمعات الموجودة القائمة على أساس من القانون والولاء الإجبارى . ويسير المجتمع الجديد على الدعائم الاقتصادية الآتية : يمتلك المجتمع نفسه الأرض وجميع مواد الإنتاج وأدواته. ويسمح بامتلاكها لمن يعملون على انفراد أو يعملون فى هيئات تتألف تألفاً حرًّا ويرغبون فى استخدام الأشياء المشار إليها بقصد الإنتاج . وحينئذ يسمح لكل فرد بحرية التمتع بالمنتجات فى حدود خاصة ؛ غير خاضع لأى إلزام سوى المساهمة بأعماله قدر طاقته فى جهود الإنتاج . هذا ؛ ويمكن للجماعات أو الهيئات المحلية أن تندمج فى اتحادات إقليمية أوسع نطاقاً على شرط ألا يكون هناك أى إلزام فى أية مرحلة من المراحل . وليس من اللازم أن يقف التعاون عند الحدود القومية الراهنة إذ أن القضاء على الدولة معناه القضاء على الحدود السياسية كذلك . وفى هذا الصدد يقول «با كونين» : «سيكون ثمة اتحاد حر بين الأفراد لتأليف جماعات أو هيئات ؛ واتحاد حر بين الجماعات لتأليف أقاليم ؛ وبين الأقاليم لتكوين أمم ؛ وأخيراً بين الأمم لتكوين الولايات الأوربية ؛ ثم بعد ذلك يتحقق اتحاد العالم كله »[1] « وسيكون لهذه الجماعات والهيئات الحرة نظام قانونى لا يستند إلى جزاءات تأديبية (أى لا يحتاج إلى توقيع العقوبات على أفراد الجمعيات المشار إليها) لأنه يتألف من قواعد ومبادئ يدرك الأفراد ضرورتها لدوام حياة المجتمع واستمرار نشاطه .

هذا هو النظام الأمثل الذى يضعه «با كونين» لقيام مجتمع فوضوى . وثمة نقطة يجدر الإشارة إليها وهى أن با كونين لا يرى فى هذا النظام صورة مثالية أفلاطونية لا يمكن تحقيقها فى واقع الأمر أولا يمكن تحقيقها إلا فى المستقبل البعيد ؛ ولكنه يرى فى هذا النظام أهدافاً واقعية يجب تحقيقها عاجلا . ويذهب به التفاؤل إلى حد أنه يرى وجوب تنفيذها قبل نهاية القرن التاسع عشر . وكان يقول إن وظيفة هؤلاء الذين يتنبأون بمجرى التطور هى أن ينظموا الثورة ويعجلوا بها ؛ ومتى قامت فإنها لا تبقى ولا تذر . وهذه الحالة تتيح الفرص لتنفيذ السياسة الإنشائية المنشودة . ومما يعجل بحدوث الثورة نشر الأفكار التى تتضمنها مبادؤنا السامية ثم التعليم والتنظيم . هذا ؛ إلى أن سياسة القمع والكبت التى تسير عليها الحكومة

(1) Coker Recent political thought p. 296, 307.

القائمة تجعل من الضرورى تنفيذ الحركة الفوضوية عن طريق جمعيات سرية تتألف من الأتباع المخلصين . ولن يكون العمل الرئيسى لهذه الجمعيات ارتكاب أعمال الإرهاب ؛ بل تحرير جمهور الشعب أولا من الأوهام الاقتصادية والسياسية والخرافات العالقة بأذهانهم بصدد هذه الأمور . والعمل على إثارة عواطفهم الطبيعية . وستؤدى هذه الجهود بصفة تلقائية إلى تعاون فعال يقوم على البطولة ويؤدى إلى قلب النظم القائمة التى ترتكز على دعائم واهية أساسها المخاوف التى لا يبررها العقل ؛ والعواطف التى تتنافى مع النظام الطبيعى . ومتى حققت الثورة ما تريده أمكن تحقيق النظام الفوضوى الأمثل وهو إنشاء مجتمع يقوم على الترابط الحر والخير المتبادل .

٢ – كروبوتكين Kropotkin ١٨٤٢ – ١٩٢١ :

يعتبر كروبوتكين أهم دعائم النظرية الفوضوية ، ترك بحوثاً تمتاز بروحها العلمية وأسلوبها الأخاذ وحيويتها . ولعل هذه الخصائص كانت سبباً مباشراً فى ذيوعها ؛ فأحدثت حركة فكرية النطاق . إذ توفر كثير من العلماء على دراستها وتحليلها وفهم مراميها البعيدة ؛ وتوفر آخرون على ترجمتها إلى اللغات الحية ليسهل تداولها ونشر ما تنطوى عليه من نظريات خطيرة فى الفلسفة السياسية والاقتصادية . وأهم ما يجدر الإشارة إليه من هذه المؤلفات ما يأتى (مترجماً إلى اللغة الإنجليزية) .

1. Memoirs of a Revolutionist.
2. The Conquest of Bread.
3. The Place of Anarchy in socialist Evolution.
4. Anarchist Communism its basis and Principles.
5. Filds, and Factors, and Workshops.
6. Mutual Aid , a factor of Evolution.
7. Ethics, origin and Development.

أقام كروبوتكين مذهبه على دعائم تطورية وتاريخية . وكان شديد الإيمان بأن منهج العلوم الطبيعية هو أفضل المناهج التى تؤدى بنا إلى نتائج حاسمة فيما يتعلق بطبيعة الإنسان وطبيعة المجتمع . ولذلك نبذ المناهج الفلسفية والميتافيزيقية واستمد أفكاره من الحقائق المادية

التى ينطوى عليها التطور الطبيعى للإنسانية. وكان يعتقد أن قوانين التطور الطبيعى تصدق على الحيوانات وتجمعاتها وعلى الأناسى ومجتمعاتهم . لأن هذه القوانين هى التى تحدد بصفة أساسية مقدار الجهد الذى يبذله الكائن ليتكيف مع بيئته ؛ ومقدار ما يحصل عليه من تطور فى أعضائه وملكاته وعاداته حتى يتحقق الانسجام والتوافق بين الأفراد والجماعات وبين البيئات التى يعيشون فيها .

وتقوم نظرية كروبوتكين فى التطور على مبدأين أساسيين :

المبدأ الأول : ملخصه أن التطور الطبيعى الذى يخضع له الفرد والمجتمع لا يحدث عن طريق عملية من عمليات التقدم فحسب ؛ بل يتم أحياناً عن طريق بعض التحولات الفجائية العاجلة التى تبدو لنا انقلابية أو هدمية لأن القوى الحيوية تعمل بطريقة منظمة فى المجرى الطبيعى لحياة الفرد . ولكن الإرادة الإنسانية تتدخل فى هذه القوى تدخلا غير موفق فإن نتائج هذا التدخل قد تزداد وتولد فى الفرد قوى المقاومة التى تبلغ بها القوة إلى أن تنطلق آخر الأمر فى صورة مرض عضوى . غير أن هذا المرض ليس فى الحقيقة إلا وسيلة ضرورية لإعادة العمليات الطبيعية إلى مجراها الطبيعى المعتاد (Normal) .

وهذا ما يحدث فى الحياة الاجتماعية . حيث نجد من ناحية تقدماً بطيئاً ثابتاً يسير بالمجتمعات من الأشكال البسيطة إلى التنظيمات العليا ؛ ونجد من ناحية أخرى ؛ الحركات التقدمية الثورية السريعة . فقد تحدث معوقات مقصودة أو غير مقصودة تعترض السير الطبيعى العادى «Normal» للمجتمع البشرى نحو تحقيق أهداف التطور الاجتماعى ؛ كأن يظهر قدر من الأفكار التقدمية التى لابد منها لاستمرار تقدم النوع الإنسانى ؛ وكأن تحاول هذه الأفكار أن تتحقق بصورة فعلية فى حياة المجتمع . غير أن عقبات كثيرة تعترض سبيلها منها : كمون بعض الطبقات وعدم اكتراثها ؛ وكسل البعض الآخر وجهلهم بحقائق الأمور ؛ ومنها كذلك الأهداف الشريرة التى يسعى إليها من لهم مصلحة شخصية فى الإبقاء على التقاليد القديمة والأوضاع القائمة . وفى مثل هذه الأحوال تصبح الحاجة ماسة إلى قيام بعض الأحداث الجسيمة التى تحطم سير التاريخ العادى وتنتزع النوع البشرى من سراديبه القديمة إلى طرق جديدة ولكنها مع ذلك تحتفظ للمجتمع بسيره الأساسى .

المبدأ الثانى : وهو أهم من المبدأ الأول ؛ وملخصه أن الدور الرئيسى فى أية عملية من عمليات التطور إنما تقوم به صفات التعاون عند الحيوان والإنسان باعتبارها صفات متمايزة عن

صفات التنافس . وفى ضوء هذا الاعتبار يكون قانون التطور العضوى عند كروبوتكين هو قبل كل شىء قانون مساعدة متبادلة وليس قانون صراع .

«The law of orgnic evolution is Primarily a law of mutual aid not of conflict.»

فالأفراد والأنواع التى يكتب لها البقاء هى تلك الأنواع التى زودت بأقوى ملكات التعاون فى صراعها ؛ فاستطاعت أن تكيف نفسها مع بيئاتها . وأما الأنواع التى تتغلب فيها صفات التنافس على صفات التعاون فإنها صائرة لا محالة إلى الفناء . وكلما ارتقت الأنواع كلما ارتقت قدراتها واستعداداتها على التعاون . وقد خصص كروبوتكين كتاباً كاملا للبرهنة على صحة هذه المبادئ عنوانه « المساعدة المتبادلة عامل من عوامل التطور »[1] والكتاب حافل بالأدلة المادية المستمدة على نطاق واسع من ملاحظة ودراسة أعضاء الحيوان وعاداته لا سيما الحيوانات المتوحشة التى تعيش فى سهول « الاستبس الروسية » حيث يحدث الصراع فى بيئات شاذة ومسرفة فى العداء. وقد برهن « كروبوتكين » على أن قانون المساعدة المتبادلة يظهر نفسه فى الحياة الاجتماعية فى صورة مبادئ المساواة والعدالة والتضامن الاجتماعى . وهذا القانون ليس شيئاً آخر غير تلك القاعدة الذهبية التى تعتبر مطلباً جوهرياً للوصول إلى الغاية من التطور الاجتماعى ومؤداها : عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به فى حالة مماثلة . وعبارته هذا نصها :

«Do to others as you would have it done to to you in like Case.»

ولكن ما هى العقبات التى تقف حجر عثرة فى سبيل تقدم المجتمع الإنسانى نحو أهدافه الطبيعية ؟ .

يقول كروبوتكين إنها الدولة والملكية الخاصة أولاً ؛ ثم السلطة الدينية التى تخدم وتحمى التحكم السياسى والامتيازات الاقتصادية .

فالدولة فى نظره ليس لها أى مبرر طبيعى أو تاريخى ؛ لأنها بما تنطوى عليه من سلطات قاهرة تتعارض مع غرائز التعاون التى فطر عليها الإنسان . فهى تقوم على فرض خاطئ ملخصه أن دوافع التنافس وحب الذات هى الدوافع المميزة التى تسود بين الأفراد وأنه لا مناص من الالتجاء إلى القوة والقهر للإبقاء على المجتمع والحرص عليه من خطر هذه الدوافع الانتهازية .

---

(1) Mutual Aid a Facror of Evolution (1902).

لقد عاش الناس أجيالا طويلة بدون قواعد مفروضة عليهم بشكل سياسى . والأصل التاريخى للدولة إنما نشأ متأخراً نسبيًّا إذ أنها حلت محل الجماعات أو التجمعات الطبيعية الأكثر حرية التى قامت فى فجر الإنسانية حيث كانت علاقات الأفراد تنظمها العادات والتقاليد التى يتعلمها الأفراد منذ عهد الطفولة كما يتعلمون الصيد والزراعة. ولم تكن القوانين فى أشكالها الأولى غير تلك العادات التى ساعدت على بقاء المجتمع ودوام استقراره . أما القانون الذى وضعته الدولة فإنه لم يظهر إلا حينما انقسم المجتمع بسبب الظروف الاقتصادية إلى طبقات يناصب بعضها بعضاً العداء ، ويسعى كل منها إلى استغلال الأخرى . ولما تطورت السلطة السياسية وتقدمت أصبحت القوانين مجرد قواعد تؤيد العادات التى ثبت نفعها للطبقات الحاكمة ودعمت تفوقها الاقتصادى . وهكذا أصبحت القوانين فى العصر الحاضر عديمة الجدوى ولا ضرورة لوجودها من ناحية ؛ وهى تعتبر مصدر ضرر من ناحية أخرى . لأنها تشمل طائفتين : طائفة مستمدة من العادات والتقاليد التى ثبت نفعها للمجتمع ؛ وهذه القوانين موضع الرعاية من جانب الأفراد دون حماية الدولة لها . وطائفة أخرى مستمدة من القواعد التى ثبت نفعها لأصحاب الملكيات الخاصة ؛ وهذا النوع من القوانين لا يخضع له الأفراد إلا خوفاً من السلطة التى تماوسها تلك الأقلية الحاكمة .

ويقول كروبوتكين إن التاريخ أثبت لنا عجز الدولة عن تحقيق أى هدف سام. فكل ما تحفظه حوليات التاريخ يدل دلالة لا يرقى إليها الشك على فساد النظام السياسى . فقد فشلت الدولة فى حماية الزارع والصانع والتاجر ؛ وجعلت من هؤلاء جميعاً سلعاً رخيصة تباع وتشترى فى أسواق الرأسمالية وكبار الملاك . وهى كذلك لم توفر الطعام للجائع ، والكساء للفقير والمحتاج ؛ والعمل للمتعطل . هذا إلى أنها لم تحافظ على حقوق الأفراد الطبيعية ، ولم ترع حرمة مساكن الأفراد وحرية اجتماعهم وحرية النشر وما إليها . وفشلت الحكومة فوق ذلك فى تحقيق ما تدعيه من حرصها على حماية الأفراد فى الداخل والخارج فالأفراد حينما يعملون بطريقة تلقائية يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم ضد اللصوص والمعتدين . ويدلنا التاريخ على أن الجيوش المنظمة لا تقوى على مواجهة الجماهير الثائرة ؛ والحركات الشعبية أقدر على مواجهة الغزوات من أية قوة أخرى. ولم تستطع الحكومة حماية الأفراد من الأشرار فى داخل المجتمع ؛ فأثر السجون فى نشر الرذائل أكثر منه فى القضاء عليها هذا ، وما تقوم به الحكومة من أوجه النشاط فى ميدان الأعمال الخيرية ونشر التعليم لا يكون مبرراً لوجودها ؛ لأن الأفراد متى تحرروا من اعتمادهم على الغير من الناحيتين الاقتصادية

والسياسية فإن نشاطهم الاختيارى سوف يحقق لهم كل ما يحتاجون إليه فى التربية والتعليم وفى ضروب الخير والإنعاش والرعاية الاجتماعية .

ويقول كروبوتكين إن هذه الحقائق تصدق كلها على جميع أشكالها الحكومات . فالانتقال من الملكيات المستبدة إلى الحكومات البرلمانية لم يؤد إلى تغيير يذكر ؛ فى الدعائم الأساسية للدولة . والنظام النيابى الذى يقوم على الانتخاب العام ليس له من أثر يذكر فى الوقت الحاضر . لأن النواب الذين يعهد إليهم بتصريف أخطر شئون الدولة ؛ يختارون عادة من بين صفوف الشعب وهم غير مؤهلين للقيام بما يوكل إليهم من وظائف . هذا ، إلى عدم إلمامهم بأصول المشاكل التى تعالجها الحكومات المتعاقبة . وإذا كان هذا اللون من النظام السياسى قد أثار اهتمام العامة بما يثيره من مناقشات ؛ غير أنه لا يصلح أن يكون أساساً لمجتمع فوضوى ؛ لأن كل مرحلة من مراحل الحياة الاقتصادية تمتاز بلون سياسى خاص . فمن المستحيل أن نعدل أساس الحياة الاقتصادية الحاضرة ؛ (أى بإلغاء الملكية الخاصة) دون أن يصحب ذلك تغيير مطابق فى أساس التنظيم السياسى .

وبصدد الملكية الخاصة يقول كروبتكين إنها بطبيعتها اعتداء على العدالة . إذ فى ظلها يستولى أقلية من الناس على معظم المنافع التى تخلقها جهوداً مشتركة بذلها كثير من الناس فى الأجيال الغابرة والحاضرة . ونظريته فى هذا الصدد تشبه نظرية « برودهون » لأن منطق نظريتهما يؤدى إلى القول بأن قيمة سلعة من السلع تعتبر ممثلة للجهود والأعمال التى أنجزتها قرون سابقة بما فيها الاختراع والاكتشاف كما تمثل أوجه النشاط الحاضر التى تقوم بها جماعات مختلفة من الأفراد يدخل فى نطاقها كل من يخدم الصناعة بشكل مباشر وكل من يعد الآلات وكل من يبحث عن المواد الأولية وكل من يساهم فى عمليات الإنتاج « أن العلم والصناعة والمعرفة والتطبيق والكشف والتحقيق العملى الذى يؤدى إلى اكتشافات جديدة ، كذلك الذهن والبدن وتشغيل العقل والعضل ؛ كل هذه الأمور تعمل معاً وتتضافر جميعاً . وكل اكتشاف وكل تقدم وكل زيادة فى الثروات الإنسانية تدين بوجودها لما بذل فيها من أعمال جسمية وعقلية فى الماضى والحاضر . فبأى حق إذن يستطيع أى فرد أن يستحوذ على أى جزء من هذا الكل الهائل ويقول هذا لى وليس لك ؟ »[1] .

وغنى عن البيان أن الظروف الاجتماعية الحاضرة هى التى تميط لنا اللثام عن فضائح

(1) The Conquest of Bread. p. 9.

الملكية الخاصة ونتائجها السيئة . فنلاحظ بين جموع الشعب فقراً وبؤساً وحاجة ؛ وملايين المتعطلين والمرضى ؛ وجيوشاً جرارة من الأطفال الأبرياء الذين لم ينالوا حظهم من النمو الطبيعي والعقلي ؛ ونجد فوق ذلك ديوناً طائلة للملاك في رقبة هؤلاء المعوزين الكادحين : بينما نلاحظ بين القلة الغنية المنعمة المدللة إسرافاً وصلفاً وغروراً وفراغاً يؤدي إلى العبث والسعي وراء اللذات الدنيئة ؛ واستهتار بشئون الصحافة واستغلالا لقدرتها على إشعال نيران الحروب . وكل هذه الظروف الاقتصادية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالنظام السياسي الذي ليس له من وظيفة في وقتنا الحاضر إلا حماية نظام الملكية الخاصة وما تنطوي عليه من مفاسد وشرور[1]

ومع أن كروبتكين كان شديد الاعتقاد في أن التطور الاجتماعي يسير نحو هدف الفوضوية ، غير أنه لم يكن يعتقد أنه يمكن الوصول إلى هذا الهدف بطريقة سلمية تدريجية ، بل يرى أنه لابد من الثورة حتى يتم التطور المنشود . وكان يعتقد أن انقلاباً سيقع في بلد من البلاد ثم ينتشر ويتسع نطاقه بحيث يصبح ثورة أوربية عامة قد تستمر من ثلاث إلى خمس سنوات[2] وستكون الثورة في مراحلها الأولى عنيفة هدامة يعزل زعماؤها الحكام الحاليين ، ويحطمون السجون والقلاع ، ومن ثم تعود روح التضامن والمساعدة المتبادلة إلى الحياة . وفي هذا الصدد يقول « إننا في حاجة ماسة إلى عاصفة مروعة تكتسح هذا التعفن ، وينعش نسيمها النفوس الخاملة ، وتعيد للإنسانية مبادئ إنكار الذات والبطولة التي بدونها يشيخ المجتمع ويضعف ثم ينحل[3] .

وبعد أن تتقوض دعائم السلطة السياسية يقوم الشعب بالاستيلاء على الملكيات الخاصة فالفلاحون يطردون ملاك الأراضي ، والعمال يطردون أصحاب المصانع ، ومن لا يملكون بيوتاً صالحة للسكنى يحتلون الأماكن التي تتسع لسكناهم ومن ثم نبدأ في بناء المجتمع الجديد الذي يقوم على « دعائم المذهب الفوضوي » ولا داعي في مرحلة الانتقال هذه لقيام أية حكومة أو أية دكتاتورية . لأن هذا معناه موت الثورة في مهدها «فإذا ما بدأ انحلال الدولة وأخذ جهاز القمع في الضعف ، فإن الجمعيات الحرة سوف تتألف بشكل آلي وحينما لا يكون التعاون بين الأفراد مفروضاً بالقوة تحت ضغط الحكومة فإن الحاجات الطبيعية ستؤدي بهم

(1) Paroles d'un revolté p. 5, 6.

(2) Ibid, p. 90.

(3) Ibid, p. 342.

إلى التعاون الاختيارى .. قوض دعائم الدولة أولا ومن ثم يقوم مجتمع حر على أنقاضها[1] .

والصورة التى رسمها « كروبوتكين » لمجتمع المستقبل تشبه فى كثير من تفاصيلها الصورة التى رسمها باكونين . والدعامة الأساسية التى يقوم عليها هذا المجتمع هى حرية الأفراد فى الانضمام إلى هيئات حرة . وتتكون هذه الجماعات عن طريق التعاقد الإرادى . ولا تستمد الجماعات الحرة قوتها واحترامها من قوة هذا التعاقد ولكن « من الحاجة إلى التعاون الودى المتبادل » والشواذ الذين يعجزون عن الوفاء بالتزاماتهم يطردون من عضوية الجماعات . ومادام هذا النظام قائماً على مبادئ الحرية والعدالة والمساواة فسيختفى الميل إلى ارتكاب جرائم أو أفعال مشينة ضد المجتمع . وفى حالة وقوع مثل هذه الحوادث ، فإن التأثير الخلقى وتدخل المشاركة الوجدانية قد يكفيان بطبيعة الحال للقضاء على هذه الحالات الجزئية واتخاذ مايلزم لرد الاعتبار . ومجالس التأديب أو مجالس التحكيم التى تفصل فى مثل هذه الأمور وفى المنازعات تؤلف على أساس إرادى كذلك حتى لا تنطوى بطبيعتها على أى مظهر من مظاهر السلطة القانونية والسياسية .

وإذا ارتكب فرد جريمة خطيرة أو درج على ارتكاب جرائم كثيرة بدون أن يكون له من وازع ، فإن القصاص الذى ينتظره هو الحرمان من الانضمام إلى أية جماعة ، وللجمهور فى مثل هذه الحالات أن يتدخل بالقوة لبتر العضو الذى ثبت فساده .

هذه هى أشهر الآراء التى نادى بها زعيما الفوضوية « باكونين وكروبوتكين » . وقد كان لها أثر كبير فى الفكر المعاصر ، وأحدثت حركة فكرية واسعة النطاق فى داخل أوربا وخارجها . فتتلمذ عليهما طائفة غير يسيرة من علماء العصر . غير أن رجال هذه الطائفة لم يضيفوا شيئاً ذا بال على جوهر النظرية ، وكانت مهمتهم مقصورة على دراسة النظرية الفوضوية وتحليلها وشرح ماتنطوى عليه من مزايا . وأجدرهم بالذكر والتنويه : إليس ركلس وجان جراف وأميل جوتير فى فرنسا ومالاتستا فى إيطاليا وجولدمان فى أمريكا[2] .

وكان من أثر هذه الحركة الواسعة النطاق أن انتشرت النظرية الفوضوية بين طبقات العمال فى أنحاء أوربا وأمريكا . وساعد على انتشارها أن طائفة من رجال الصحافة انضموا إلى أنصار هذه النظرية وأخذوا يدافعون عنها وينشرون أنباء مثيرة عن مدى انضمام العمال

(1) Ibid, p. 116, 117.

(2) Elisée Reclus; Jean Grave; Emile Gautier; Enrico Malatesta; Lmma Goldman.

إلى صفوفها.. هذا ، إلى قيام اتحادات ونوادى قوية تعمل على نشر الدعوة وترسم سراً الخطط التى ترمى إلى قلب نظم الحكم والقيام بالثورات المفاجئة[١] .

٢ – تلستوى Tolstoi :

انحرفت طائفة من الفوضويين عن المبادئ التى أعلنها باكونين وكروبوتكين لما تنطوى عليه آراؤهما من استعمال العنف والقسوة فى تحقيق الأهداف المنشودة ولأنهما يفضلان القيام بالثورة والعمل المباشر .

وأشهر رجال هذه الطائفة الفيلسوف الروسى « تلستوى «Leo Tolstoi» وهو أشهر المفكرين الروسيين الذين ظهروا فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وأرجحهم عقلا ، وأكثرهم اتزاناً ، وأرقهم عاطفة وإنسانية . وهو فوق ذلك من كبار الأدباء الذين ظهروا فى العالم حديثاً . ترك بحوثاً كثيرة وقصصاً ممتعة . وكتاباته كلها تنطوى على أسمى المعانى وأنبلها . فقد كان يكره الحياة المليئة بالمتعة واللذات ، وكان يكره السفسطة والجدل العقيم ، وكان يكره الظالم والاستعباد ، وكان دائماً يمجد العمل الحر الشريف ويدعو إلى الحياة البسيطة الهادئة .

وتعرف نظرية « تلستوى » « بالفوضوية المسيحية » وليس معنى ذلك أنه أقام مذهبه على أسس مسيحية ، ولكنه شرح الفوضوية فى ضوء شرحه وتفسيره لدعائم المسيحية كما تبدو له ، لأنه لم يؤمن بصحة ما قاله رجال الدين المسيحى . فقد رفض مثلا فكرة الثالوث المقدس وفكرة تقديس المسيح وتأليهه ، ولم يؤمن بخلود النفس ، ولكنه ظل مع ذلك مسيحياً فى تعاليمه ومبادئه الأخلاقية .

وقد عرف المسيحية بأنها بكل بساطة مجموعة من التعاليم والقواعد الأخلاقية التى فى ضوئها يصل الفرد إلى الحل المطابق السليم للمشاكل التى يصادفها فى سلوكه مع الآخرين ، أى أنها ترسم الطريق الحق لما ينبغى أن تكون عليه العلاقات بين الأفراد . ويقول إن تعاليم المسيح تؤدى إلى أن أفضل المبادئ وأكثرها معقولية هو مبدأ إنكار الذات بما ينطوى عليه من مبدأ التضحية براحة الإنسان فى سبيل راحة الآخرين ، والضغط على نزعاته الحيوانية

(١) اقرأ تحليلا ونقداً مفصلا للمذهب الفوضوى فى كتابى « النظريات والمذاهب السياسية » الطبعة الثانية ١٩٥٨ (مطبعة لجنة البيان العربى) .

الخالصة فى سبيل منفعة الآخرين ، والنزول عن حقه فى امتيازات معينة فى سبيل رفاهية الآخرين ، والتضييق على نفسه فى وسائل العيش وعدم الإغراق فى مظاهر الترف فى سبيل أن ينال الآخرون حقهم فى أن يعيشوا ويسعدوا .

وفى ضوء هذه الاعتبارات فالدولة والملكية الخاصة لا يمكن أن يتفقا فى وجودهما مع التعاليم المسيحية الحقة . لأن الدولة تقوم على القوة والسلطة وتنفذ مشيئتها عن طريق القوة المسلحة وفرق الجيش والبوليس ، وهؤلاء قد دربوا على القتل والتنكيل . وهذه الأمور تخالف ماقاله السيد المسيح « لا تقاوم الشر بالقوة » . وفيما يتعلق بنظام الملكية نجد أنه يبيح للقلة أن يثروا ويتمتعوا بالنعيم والخيرات التى تعتبر ثمرة الجهود المضنية للسواد الأعظم من الشعب الكادح الفقير ونظام هذا شأنه يتنافى بطبيعته مع مادعا إليه السيد المسيح من الزهد فى الثروة والإحسان إلى المحتاج والدعوة إلى الأخوة الإنسانية . ولم يرسم لنا « تلستوى » صورة لمجتمع المستقبل كما فعل باكونين وكروبتكين «فالمستقبل هو مايرسمه الأفراد وما تؤدى إليه الحوادث»[1] غير أنه نبه كثيراً إلى عدم استعمال القوة والعنف فى تغيير مجرى الحوادث أو فى قلب النظم القائمة ، لأن النظرية المسيحية تنهى عن استعمال القوة فى أية صورة من صورها . هذا إلى أن الانقلابات والثورات والدسائس لا تترك وراءها إلا الحكومات المستبدة الغاشمة . ولذلك فإن أفضل السبل التى ينبغى الالتجاء إليها لتحقيق مجتمع المستقبل تتلخص فى تنوير الأذهان وغرس التربية الفاضلة فى قلوب النشء ، والعمل على يقظة ضمائر الأفراد لكى يعيشوا وفقاً لمبادئ الحب والمساواة ، ودعوتهم إلى رفض الأوامر التى تتعارض مع تعاليم المسيحية . ولا بأس كذلك من دعوتهم إلى مزاولة المقاومة السلبية والامتناع عن دفع الضرائب وتأدية الخدمات العامة إذا حزب الأمر .

غير أن هذه الأمور وما إليها ، تعتبر وسائل بطيئة غير فعالة ولا تؤدى إلى الغرض المنشود وليس لها من أثر عاجل فى معالجة المعتل من الشئون . هذا فضلا عن أنها توقع بالأفراد الذين يلجأون إلى المقاومة السلبية السلمية ضروب العقاب وألوان العذاب مادامت الدعائم التى تقوم عليها السلطة السياسية قوية سليمة لم تمس . ولهذا أخفقت جهود « تلستوى » السلمية . وكان النصر حليف دعاة القوة والعنف ، ومن ثم اجتاحت الثورة الحمراء روسيا القيصرية .

(1) Tolstoi : The Kingdom of God within you p. 326.

٤ – جاك نوفيكوف Jacques Novicow

ولد عام ١٨٤٩ وتوفى عام ١٩١٢ قدم وهو صغير إلى فرنسا فأتقن الفرنسية واستعملها فى الكتابة . ولعل الفترة التى قضاها فى فرنسا جعلته يتأثر بأفكار غرب أوربا . ولذلك نجد أن كثيراً من آرائه تعكس لنا التيارات السياسية التى كانت تسود هذه المنطقة . ويبدو ذلك واضحاً فى نظرياته ضد النزعات الحربية «Antimilitarism» وهجومه على سياسة بسمارك المعروفة بسياسة الدم والحديد، كما يبدو كذلك فى تأييده للاتجاه نحو فكرة العالمية أو الدولية أى إخضاع دول العالم لسياسة عالمية موحدة «Cosmopolitanism» ودعوته إلى ضرورة التمثيل والتكييف الثقافى بين الأفراد قبل تمثيلهم فى وحدة سياسية .

وكان نوفيكوف عالماً مدققاً تغلب عليه الصفة العلمية ولو أنه مزج بين العلم والسياسة وجعل قضاياه العلمية فى خدمة أفكاره السياسية . ويؤثر عنه أنه كان عدواً للدكتاتورية فى كل مظاهرها وشتى صورها ، وكان يحارب بقسوة كل شكل من أشكال الطغيان وكل ألوان الضغط أو الحجر على عقل الإنسان وحرياته ، ونصب نفسه مدافعاً عن العدالة والاعتدال والتعاون والإخاء . وقد شبه النقاد منزلته بين مواطنيه بصدد وصاياه وتعاليمه ، بمنزلة الزعيم والفيلسوف « جفرسون » فى أمريكا .

وينسب نوفيكوف إلى المدرسة الدارونية ومدرسة الصراع والقوة ولو أنه يختلف إلى حد كبير عن دعاة هذه المدارس كما سنفصل ذلك فيما بعد . وعالج فى ثنايا مؤلفاته القيمة طائفة لا حصر لها من النظريات الاجتماعية بطريقة تحليلية وضعية تجعلنا لا نغفل مركزه الممتاز على الخط النظرى الذى يربط بين فلاسفة الاجتماع الكبار . إلى القارئ أهم الموضوعات التى عالجها هذا المفكر .

أولا – نظريته فى علم الاجتماع وحقائقه :

علم الاجتماع هو العلم الذى يدرس المجتمع . والعلوم الاجتماعية الخاصة هى فروع تابعة للعلم وملحقة به . وتحت تأثره بنظريات التطور وتنازع البقاء يقرر أن هذا العلم يرتكز بصفة أساسية على قوانين علمى الحياة والنفس ، وأهم الروافد التى تغذيه بحقائق اجتماعية هى علوم الاقتصاد والسياسة والقانون . ويرى أن هذا العلم حتى عهده لا يزال فى مرحلته المتيافيزيكية ، ولن يصل إلى مرحلة أسمى إلا إذا ارتكز على المناهج الاستقرائية التى

استخدمت بنجاح فى العلوم الطبيعية وهى مناهج محسوسة ومضبوطة . وعندما يصل إلى هذه الدرجة المرموقة سيصبح أهم علم يوجه السلوك الإنسانى والنشاط السياسى توجيهاً سوياً .

أما المجتمع الذى يتخذه العلم موضوعاً لدراساته ، فهو حقيقة حية وضعية . وفى هذا الصدد يقول إن مجرد اتصال مجموعة من الأفراد لا يكون مجتمعاً ، فلا بد من وجود علاقات وآثار متبادلة بين الوحدات الاجتماعية المختلفة . وتبدأ هذه الآثار والعلاقات المتبادلة بين العناصر الكيميائية فى العالم غير العضوى ، وتمر بدرجات من القوى بين الخلايا الحية فى العالم العضوى ، ثم تتطور إلى علاقات محسوسة فى عالم الحيوان والإنسان ، وتبدو أكثر تطوراً فى ظواهر تقسيم العمل فى عالم الإنسان أى فى المجتمع .

ومن وجهة النظر المورفولوجية يمكن تعريف المجتمع « بأنه جماعة من الكائنات الحية ، يبدو الواحد منها مميزاً فى ذاته ومنفصلا عن الآخرين » ومن وجة النظر الوظيفية يمكن تعريفه « بأنه جماعة من الأفراد مرتبطون فيما بينهم بعلاقات حيوية قائمة ومستمرة ». ومن جهة النظر الفزيولوجية يمكن القول بأن كل مجموعة من الأفراد يمكن أن تتحول إلى مجتمع منذ اللحظة التى تشعر فيها تلقائياً بقيام التضامن بينها ووجود علاقات قوية تربطها ببنى جنسها . أى أن قيام المجتمع يرتكز بصفة أساسية على الشعور بوجود النوع Consiousness of Kind» وهى الفكرة التى أيدها المفكر الأمريكى « جدنجز «Giddings» .

ويميز « نوفيكوف » بين المجتمع والدولة والأمة . ويقول إن الدولة هى مظهر خاص من المجتمع تنطوى على تنظيمات معينة هدفها حماية المواطنين والرعايا وصون ممتلكاتهم والحرص على حقوقهم . وتختلف الأمة عن الدولة بصفة أساسية إذ أنها ترتكز على مقومات ودوافع نفسية وتراث ثقافى و رواسب اجتماعية أكثر من قيامها على المصالح المادية والحرص على الثروات الخاصة . ولذلك فإن الأمة ثمرة راقية للتطور الاجتماعى وهى أسمى شأناً من الدولة وليست فى حاجة إلى أن تصبح ذاتية مع الدولة بينما يوجد ميل فى تاريخ أوربا السياسى لمحاولة جعل الدولة ذاتية مع الدولة «One State; one Nation» أى أن الدولة بوصفها مركباً سياسياً لا تتكون إلا من قومية واحدة ، لأن الملاحظ فى الماضى والحاضر ، أن الأمة الواحدة تكون موزعة على عدد كبير من الدول ، وأن دولة واحدة قد تنتظم قوميات كثيرة مختلفة فى مقوماتها وخصائصها .

ودرس « نوفيكوف » القومية وناقش المقاييس المختلفة التى يمكن أن تكون امتحاناً للقومية

وإبراز شخصيتها . وعرض فى هذا الصدد للوحدة الإقليمية والتجانس العنصرى واللغة المشتركة ، وتشابه النظم الدينية والطقوسية ، وتماثل النظم التشريعية ، وذاتية التاريخ المشترك ، والتكيف والتطابق فى العادات والتقاليد والشعبيات . وبعد أن حلل هذه العوامل وامتحنها وضرب أمثلة لها ، قرر أن ليس واحد منها أو كلها تعتبر مقومات لجوهر القومية ، إنها جميعاً عوامل هامة ومطالب أساسية لاغنى عنها لتطور القومية ولكن ينبغى أن نضيف إليها التضامن والمشاركات الوجدانية والروابط السيكلوجية .

والقومية فى نظره ليست « كسباً مفاجئاً » أو « حدثاً سريع التكوين » إنها ثمرة لتاريخ شاق ، ونتيجة لتطور طويل بعيد الغوص يستمد جذوره من روابط الاتحاد السياسى وتماثل الرغبات المادية والروحية والتضامن النفسى . وهى ظواهر لاتتحقق بالقدر الكافى إلا بعد فترة طويلة من التكيف والتطابق والتمثيل . وهذه الحقيقة تبرهن على فشل المحاولات الحمقاء التى يبذلها بعض رجال السياسة لإرغام شعوب مختلفة على الانضواء فى قومية أعم والخضوع لحكم سياسى معين مستخدمين فى ذلك وسائل الضغط والإلزام والإرهاب . فلاشك أن هذه المحاولات اليائسة لا تتفق مع طبائع الأشياء .

وانتهى من تحليله لفكرة الأمة إلى القول بأنها أهم عامل فى التقدم الاجتماعى وهى أسمى شأناً فى تاريخ الحضارة من الدولة التى تنتهى فى آخر تحليلها إلى « جمع مسرف من حفظة الأمن » .

وفى تحليله لفكرة « الدولة » درس مقوماتها الأساسية من حيث : الإقليم والسكان والسيادة والتنظيم الحكومى . وقارن بينها وبين الحكومة من حيث الشخصية القانونية والوضع الاجتماعى والناحية الوظيفية . وتكلم عن تطور الدولة من دولة المدينة ، فالدولة القومية ، ثم الدولة الإقليمية ، ودرس علاقة الدولة بما عداها وجاءت دراساته فى هذا الصدد قريبة إلى حد كبير من مبادئ القانون الدستورى والقانون الدولى العام .

ثانياً — أشهر مؤلفاته :

١ — الكتاب الأول : السياسة الدولية ونشره عام ١٨٨٦ La politique International

وهو أول كتاب يعرض بصورة منظمة الأفكار المتصلة بالتنظيم السياسى الدولى ، ومحاولات تحقيق « الاتجاه نحو العالمية » وقيام عصبة أمم منذ عصر دانتى إلى زمانه . وخصص

الجزء الأول من كتابه لتحليل طبيعة الحياة الاجتماعية ومقوماتها العضوية ، وتحليل طبيعة العلاقات المتبادلة . وخصص الجزء الثانى لدراسة مظاهر الصراع بين المجتمعات الإنسانية وجاء هذا الجزء تمهيداً لمؤلفه الكبير « الصراع بين المجتمعات الإنسانية » . وعالج فى الجزء الأخير مشكلات التنظيم السياسى الدولى . ويرتكز هذا التنظيم على نظريته فى الصراع العقلى الذى هو نهاية المطاف من مختلف مظاهر الصراع . فحيث تتحقق فكرة قيام « اتحاد دولى فدرالى » تختفى مظاهر الصراع الطبيعى (أى الحروب) وتحل محلها مظاهر الصراع العقلى التى تعبر عن أسمى انطلاقات الجنس الإنسانى .

٢ ــ الكتاب الثانى : مظاهر الصراع بين المجتمعات الإنسانية وأدوارها المتعاقبة (نشره عام ١٨٩٣) .

Les Luttes entre societés humaines et leurs phases successives.

يعتبر هذا الكتاب عمدة مؤلفاته وأكثرها تركيزاً وتصويراً لمذهبه. وأهم فكرة يرتكز عليها الكتاب هى أن التطور البشرى يتميز بمظاهر « للصراع والوفاق «Struggles and Alliances» تسير فى سلسلة متتابعة الحلقات ومرت بمراحل رتيبة هى على التعاقب : المرحلة الفزيولوجية فالاقتصادية ثم السياسية وأخيراً المرحلة العقلية ، وتعتبر المرحلة الأخيرة أكثرها رقياً وسمواً . ولخص « نوفيكوف » فى الجزء الأول من الكتاب القضايا الرئيسية التى تنطوى عليها نظريته وأهمها :

١ ــ العالم ميدان صراع ومد وجزر بين شقاق ووفاق .

٢ ــ أن التنازع على البقاء ظاهرة كلية وعالمية وقد مرت بأدوار متعاقبة : كيميائية وجرمية وبيولوجية واجتماعية .

٣ ــ يأخذ التنازع على البقاء بين النبات والحيوان مظهرين أساسيين هما : الامتصاص والإفناء .

٤ ــ يمكننا أن نميز فى عالم الحيوان مظاهر للصراع الاقتصادى والعقلى .

٥ ــ أن النتيجة النهائية للتنازع على البقاء هو التكيف بالبيئة .

٦ ــ أن التقدم بكل بساطة هو التعجيل بعملية التكيف والتطابق .

هذه هى القضايا الأساسية التى فى ضوئها يحلل مظاهر الصراع البشرى الأربعة : الفزيولوجى ، والاقتصادى ، والسياسى ، والعقلى .

ويقول «نوفيكوف» أن كل نوع منها يبدو فى مظهرين مختلفين : مظهر تلقائى بطىء، ومظهر أكثر تقدماً وتغيراً وسرعة . وبمعنى آخر تمر كل مرحلة صراع تحت صورتين : صورة غير عقلية ، وصورة عقلية .

فى مجال الصراع الفزيولوجى يمكننا أن نميز بين المظهر البطىء غير العقلى كما فى حالة قتل الأفراد للحصول على طعام ، وبين المظهر السريع العقلى كما فى حالة استخدام الأنواع الدنيا من الكائنات فى الحصول على الغذاء وابتكار وسائل صناعية لزيادة موارد إنتاجية للغذاء . والغاية من هذا الصراع الفزيولوجى فى مظهريه هى الحصول على مزيد من الغذاء .

وفى مجال الصراع الاقتصادى والمظاهر البطيئة للصراع السياسى نجد أن صورته التلقائية البطيئة تتمثل فى تهديد أو قتل الغير للاستئثار بثروته ، وفى القيام بهجمات خاطفة للسرقة والحصول على الثروات والأرقاء ، وفى اغتصاب الأراضى والمساكن ، وفى استرقاق المواطنين المغلوبين على أمرهم واستبعادهم فى خدمة أغراض اقتصادية . أما الصورة العقلية لهذا الصراع فتتمثل فى زيادة ينابيع الثروة وتدعيم عناصر الإنتاج والعمل زيادة وفتح أسواق جديدة والدخول فى تنافس مشروع وقيام حكومة مستنيرة تعتبر نمواً ارتقائياً للحياة المدنية . والغرض الذى يهدف إليه الصراع الاقتصادى بمظهريه هو الحصول على الثروات .

وفى الصراع السياسى تتمثل صورته التلقائية البطيئة فى تهديد المواطنين للحصول على امتيازات وحقوق سياسية سامية ، وفى إخضاعهم للغزاة وفى تحقيق مطالب هؤلاء الغزاة من حيث السيطرة السياسية والاستعلاء على الآخرين . أما صورته العاقلة فتتمثل فى نشر المثل السياسية بين الشعوب المختلفة المتجاورة ، والدعاية للمذاهب السياسية والتصورات والمبادئ السياسية ، ورسم الخطط لتحقيق تبعية بعض الوحدات السياسية أو توسيع مناطق النفوذ ، وتشكيل الاتحادات والمنظمات السياسية وما إليها . ويهدف الصراع السياسى بصورتيه إلى حماية المواطنين فى الداخل ومن أخطار الغزو الخارجى ، وتأمين الثروات القومية والخاصة ، وحماية حقوق المواطنين من العابثين والعصاة ، وتحقيق المطالب والنزعات القومية .

وفى مجال الصراع العقلى ، وهو نهاية المطاف من مختلف مظاهر الصراع البشرى ،

فنجد أن مظهره البطيء غير العقلي يتمثل في تعذيب الأفراد والتنكيل بهم ومحاولة فرض مجموعة من الآراء والأفكار والمعتقدات على عقولهم كما يحدث في عصور الاضطهاد الفكري والمذهبي والديني ، وكما يحدث في الحروب الدينية وصراع اللغات والحضارات ، ومحاولة فرض أساليب خاصة في التفكير والعمل على الدول المغلوبة على أمرها ، وإتخاذ أساليب شاذة لإذابة القوميات وتحليل مقوماتها والعمل على إفنائها في قوميات أخرى . أما الناحية السوية لهذا الصراع فتبدو في نشر حرية الفكر والعلم والدين ، وحرية النشر والكتابة والقول والاجتماع والعمل على التقارب الفكري والثقافي والحضاري بين شعوب العالم ، وتوهين الفواصل اللغوية والدينية والمذهبية للوصول بالإنسانية إلى قيم متماثلة ورأي عام عالمي متحرر . والغرض الفذ الذي يرمي إليه هذا الصراع بمظهريه هو تحقيق المطالب العقلية والمذهبية بمختلف مظاهرها تحقيقاً متحرراً ومتكاملا .

٣ ـ الكتاب الثالث : مظاهر الفوضى في المجتمعات الحديثة

Les Gaspillages des Sociétés modernes

خصص هذا الكتاب للكلام عن مظاهر الفوضى والانحلال في المجتمع الحديث . وردها إلى الإسراف في نفقات ومطالب التسلح والدعاية الحربية ، والرغبة في تحقيق الزعامة العسكرية ، وتدخل الحكومة في المسائل الاقتصادية تدخلاً ارتجاليًّا ، وقيامها بمشروعات مسرفة طفرية .

٤ ـ الكتاب الرابع : الحرب وفوائدها المزعومة ونشره عام ١٨٩٤

La Guerre et ses prétendus Bienfaits.

وتكلم في هذا الكتاب عن الحروب وعرض وجهات نظر المؤيدين لها والمعارضين وفند ادعاءات وأحاجي هؤلاء وأولئك . وحلل ظاهرة الحرب ونتائجها من النواحي الفزيولوجية والاقتصادية والأخلاقية وختم كتابه بنقد الداروينية من الوجهة الاجتماعية واعتبرها تطبيقاً خاطئاً للداروينية البيولوجية على العمليات والعلاقات الاجتماعية . وحمل حملة بليغة على أنصار الداروينية وخاصة « جمبلوفتش وارتزنهوفر » بوصفهما أبلغ المؤيدين لهذه النظرية الاجتماعية .

٥ ـ الكتاب الخامس : اتحاد أوربا اتحاداً فدراليًّا ونشره عام ١٩٠١ .

La Fédération del, Europe.

خصص هذا الكتاب للدعوة التى طالما يرددها فى كل كتبه وهى تحقيق الاتحاد الفدرالى بين دول أوربا . والكتاب أجزاء: درس فى الجزء الأول الاتحاد ومميزاته الاقتصادية والسياسية ودرس فى الجزء الثانى الصعوبات الأساسية التى تعترض طريق فكرة الاتحاد وأثار فى هذا الصدد اعتبارات كثيرة منها : الطمع فى التوسع الإقليمى والتفوق الحربى ، وأخطاء العسكريين والرغبة فى التوسع القومى ، واحتقار مبادئ العدالة الدولية ، والعداء العنصرى ، والنعرة القومية ، والغرور القومى ، وقصور الجهاز الإدارى ، والدور الذى تلعبه العناصر المحافظة ودعاة الرجعية . ودرس فى الجزء الثالث العوامل التى تساعد على تحقيق الاتحاد وناقش الاعتبارات الآتية : التنظيم الفنى للمسائل الاقتصادية والسياسية ، والحربية ، واتساع الأفق الثقافى والعقلى ، والدعاية لفكرة القومية الأوربية العامة ، والاتجاه نحو العالمية أو الدولية وفى الجزء الأخير درس الوسائل التى بفضلها يمكن تحقيق الاتحاد المنشود ، ودرس مستقبل النظم الاتحادية ، ورأى ضرورة تماثل مواقف الدول بصددها .

٦ — الكتاب السادس : نقد الداروينية من الناحية الاجتماعية ونشره عام ١٩١١ .

La Critique du Darwunisme Social.

ناقش فى هذا الكتاب نظريات دارون الاجتماعية . نقد المذهب الفردى والمذهب الحيوى وحلل أخطاء بعض علماء الاجتماع المتأثرين بالمدرسة العضوية فى المماثلة التى يعقدونها بين المركب الحيوى وجسم المجتمع ، وفى التطبيق المباشر للقضايا والقوانين البيولوجية على العمليات والعلاقات والوظائف الاجتماعية . والكتاب فى جملته تفنيد ونقد لنظريات داروين الاجتماعية ومناهج بحثه فى حقائق المجتمع البشرى وظواهره .

٧ — الكتاب السابع : آلية وحدود الاجتماع الإنسانى (نشرة عام ١٩١٢)

Mecanisme et Limites de L,Association Hamaine.

وهذا الكتاب هو آخر مؤلفاته وخاتمة نشاطه العلمى . وعاد فيه إلى معالجة فكرة اتحاد العالم الغربى وبرهن على فساد الاعتراضات التى تثار ضد فكرة الوحدة . وقرر أن التقدم الاجتماعى فى كل المجالات وتقدم العلاقات الدولية إنما يرتكزان على فهم واضح لميكانيكية الاجتماع الإنسانى . وأتى فى هذا الكتاب بفكرة جديدة هى « التبادل »

إن التبادل هو الدعامة الجوهرية التى ترتكز عليها الحياة الاجتماعية وهو منبع هذه الحياة

وطريقها إلى التقدم . أما السلب والنهب فهو ظاهرة تؤدى إلى الجمود والموت . ويتضمن التبادل مظاهر كثيرة منها : تبادل سلع بسلع ، وتبادل سلع بخدمات ، وتبادل خدمات بخدمات ، وكل تبادل ينطوى على زيادة رفاهية الإنسان وملذاته . وليس الاجتماع الإنسانى هو وحده الذى يرتكز على التبادل ، فالحضارة ذاتها إنما ترتكز عليه كذلك . وقد ساعدت وسائل المواصلات والنقل الآلى إلى زيادة أسباب التبادل بين مختلف الحضارات . حتى أضحى من المستحيل وضع حدود لتقدم الاجتماع الإنسانى . وبفضل التبادل استقرت الحياة الاجتماعية وقامت الدولة . إذ أصبح قيامها ضرورة يقتضيها « التبادل » وذلك للحرص على الملكية القائمة على أساس التبادل ، وتنفيذ وحماية العقود القائمة كذلك على التبادل ، وتحسين آلية وفنية وسائل النقل والمواصلات التى تتيح التبادل على أوسع نطاق . فالتبادل على هذا النحو أكثر القوى الديناميكية فاعلية فى تكوين الدولة ، والدور الذى يلعبه فى حياة الدولة أهم وأخطر من الحروب .

ولا يخلق التبادل الدولة ونظمها فحسب ، ولكنه أكثر من ذلك يمهد الطريق لاتحاد الدول . وليس أبلغ فى الدلالة على ذلك من أن جميع الاتفاقات والمعاهدات الدولية ترجع إلى ظروف التبادل . كما يبدو ذلك فى معاهدات تقسيم الحدود الإقليمية والمائية والجوية ، والاتفاق على تعريفة التلغراف والتليفون ووسائل البريد وما شابهها ، والاتفاقات التجارية والثقافية وتبادل المعونة والخبرة الفنية وما إليها .

٥ – دى روبرتى De Roberty :

ولد عام ١٨٤٣ فى روسيا وتربى فيها وتلقى ثقافته على خيرة أساتذتها وتخصص فى الدراسات الاجتماعية النظرية وتعمق فيها حتى أصبح من علماء الرعيل الأول الذين حملوا لواء علم الاجتماع وأرسوا قواعده ومناهجه . تأثر فى شبابه بفلسفة أوجست كونت الوضعية وأصبح من دعائم المدرسة . ولذلك عندما نشر فى روسيا ١٨٧٦ كتابه « علم الاجتماع » ذاع صيته وتوفر عالمان من أتباع « كونت » على ترجمته إلى الفرنسية وهما « لتريه Littré » المفكر الفرنسى و « فيروبوف Virouboff » المفكر الروسى المشهور . وكان هذان العالمان قد اشتركا كذلك فى إصدار مجلة خاصة للدفاع عن فلسفة كونت الوضعية اسمها « مجلة الفلسفة الوضعية » .

غير أن « دى روبرتى » لم يستمر أميناً على مذهب كونت. فقد نقده وخرج على بعض تعاليم الأستاذ . وانتهى به إلى وضع نظرية جـــديدة سماها « الوضعية الجديدة Neo positivisme» وكتب بحثاً خاصًّا شرح فيه أوجه الخلاف بينه وبين أوجست كونت عنوانه :

« لماذا لم أكن وضعيًّا ؟ «Pourquoi je ne suis pas positiviste?

ولما أصبح مذكوراً فى الأوساط العلمية ؛ سافر إلى الخارج يدرس ويلقى المحاضرات فى كثير من الجامعات الأجنبية . ثم عاد إلى روسيا عام ١٩٠٩ حيث عين أستاذاً فى الأمراض العصبية والنفسية بمدينة بطرسبرج كذلك إلى أن اغتيل فى منزله بولاية Tverskaia عام ١٩١٥ .

وترك « دى روبرتى » ثروة علمية وافرة أجدرها بالذكر :

(ا) فى ميدان الدراسات الفلسفية .

١ — الفلسفة القديمة والحديثة	L'Ancienneet la Nouvelle philosophie
٢ — اللامعلوم	L'Inconnaisable
٣ — فلسفة العصر	La philosophie de siécle
٤ — نظرية المعرفة	Agnosticisme
٥ — البحث عن الوحدة	La Recherche de l'Unité
٦ — أوجست كونت وهربرت سبنسر	A. comte et H. Spencer
٧ — فردريك نيتشة	F. Nietzsche
٨ — مبادئ العقل وقوانين الكون	Les Concepts de la Raisonet les Loisde l'Univers

(ب) فى ميدان الدراسات الاجتماعية :

١ — علم الاجتماع	La Sociologie
٢ — علم الأخلاق	L'Ethique
٣ — الروح الجمعية	Le Psychisme Social
٤ — منهج جديد فى الاجتماع	Nouveau Programme de Sociologie

٥ — علم اجتماع الفعل Sociologie de l'action

٦ — دستور الأخلاق Constitions de l'Ethique.

وكان دى روبرتى عميقاً فى تفكيره ؛ شاقًّا ومجهداً فى تحليله وعرضه للمسائل ؛ جافاً فى أسلوبه . ولعل هذه الاعتبارات كانت سبباً فى عدم ذيوع أفكاره وانتشارها وعدم شهرته بين علماء الاجتماع الذين ترددت أسماؤهم على ألسنة الباحثين وفى مؤلفاتهم .

ويمكننا أن نلخص القضايا العامة التى تنطوى عليها فلسفة « دى روبرتى » والتى انتهى إليها فيما يأتى [1] :

١ — يتكون العالم من مظاهر أساسية للطاقة . الطاقة الطبيعية الكيميائية (اللاعضوية inorganic) ؛ والطاقة الحيوية (العضوية organic) ؛ والطاقة الاجتماعية (فوق العضوية Super organic) .

٢ — الظواهر الطبيعية الكيميائية هى نتيجة أو مظهر لتداخل الخلايا وتفاعلها وتعقد آثارها المتبادلة ؛ والظواهر الاجتماعية نتيجة لتداخلها وترابط الأعصاب المخية وتفاعل الخلايا العقلية وتعقد آثارها المتبادلة . وكل طائفة لاحقة من الظواهر تبدو فى صورة « تعقد نوعى » للطائفة السابقة .

٣ — إن الانتقال من طائفة إلى أخرى كان تدريجيًّا ونسبيًّا . وهذه الحقيقية واضحة إذا درسنا تجريبيًّا الخط الذى يفصل بين المملكتين « اللاعضوية والعضوية » والحدود التى تفصل بين المملكتين « الحيوية والاجتماعية » .

٤ — تتميز ظواهر الحياة بظهور ما يمكن تسميته مبدئيًّا بالعمليات النفسية مثل : سرعة الانفعال ، والإحساس ، والمشاعر ، والعواطف ، والتخيل .

٥ — أما جوهر الظواهر فوق العضوية فهو « التفكير » والمعرفة المجردة . فإن أسمى خواص هذه الظواهر هى الإدراك والمقولات وقوانين العلم والمبادئ الكلية فى الفلسفة والدين والرمزية فى التصورات والفنون ؛ فهذه كلها مظاهر مختلفة للتفكير الاجتماعى أو المعرفة الاجتماعية .

---

(1) Sorokin ; Les Theories Contemporaines.

ولما كانت هذه المظاهر العقلية لا توجد إلا بين الكائنات البشرية ، أصبحت هى الدعائم الجوهرية للحضارة الإنسانية .

إن المظاهر العقلية التى أشرنا إليها إنما تتجسد فى أسمى مظاهر الحضارة : فى العلم وفى الفن والجمال وفى التفكير التطبيقى وفى المعرفة القائمة على أساس القضايا والقوانين العلمية . إنها تكون مملكة مختلفة تماماً عن مملكة الظواهر الحيوية العضوية التى تتميز فقط بالظواهر النفسية المجردة . وأن الشقة بينهما لا تقل شأناً عن الهوة التى تفصل بين الظواهر اللاعضوية والعضوية ؛ وبين هذه الأخيرة والظواهر فوق العضوية .

٧ — وما دامت الظواهر العقلية على هذا النحو ؛ فما هو إذن وجه أصالتها ؛ وأصل وجودها ونشأتها ؟ ولماذا كانت مقصورة على مملكة الإنسان فحسب ؟؟ .

٨ — انتهى « دى روبرتى » من تحليل الأسئلة التى أثارها إلى وضع طائفة من « الفروض الحيوية الاجتماعية Bio-Social hypothesis فقرر أن العامل الأساسى فى ظهور ونمو التفكير فوق العضوى إنما يرجع إلى التفاعل الناتج من تداخل العلاقات والعمليات العقلية بين المركبات العضوية . وقرر أيضاً أن أصل التفكير مزدوج : فيه جانب بيولوجى خالص يبدو فى صورة العوامل الحيوية التى خلقت المركبات الحية الراقية المزودة بجهاز عصبى راق ومتطور ويستطيع أن يستقبل التفاعلات العقلية المتبادلة بين هذه الكائنات المتطورة . وفيه جانب اجتماعى خالص يبدو فى عملية التفاعل ذاتها ومبلغ انطباعاتها فى كل عقل فردى وبدون هذا العامل لا يمكن لظاهرة التفكير أو المعرفة فى مختلف صورها أن تظهر وترسب فى الكائنات فوق العضوية مهما بلغت من السمو والتطور فى تكوينها البيولوجى .

٩ — ويسوق (دى روبرتى) طائفة من البراهين لتوضيح نظريته وتأييدها وذلك فى ضوء الاعتبارات الآتية :

(ا) إن التفكير يختلف عن الظواهر والانفعالات النفسية المجردة فى أنه لا يمكن أن يوجد بدون لغة ؛ واللغة بدورها لا يمكن أن تظهر بدون مؤثرات عقلية دائمة ومستمرة . وإذن فلا يمكن للتفكير أن يقوم بدون وجود هذه المؤثرات والتفاعلات المتبادلة بين هيئة المركب فوق العضوى . وهذه القضية تعزز ما نذهب إليه من أن اللغة مقصورة على الكائنات البشرية ؛ وكذلك ظواهر التفكير فإنها مقصورة عليها .

(ب) إن ظواهر التفكير والمعرفة تختلف فى طبيعتها عن الإحساسات والصورة الفردية الخاطئة . وذلك لأنها ترتكز على الحق والصواب والدقة . فهى لا تنطوى على مجرد تصورات وتجارب فردية ومعلومات مشتتة ؛ إنها ثمرة التجارب الاجتماعية فى أجيال عديدة ؛ وهى ثروة الإنسانية خضعت فى تاريخها الطويل الشاق لامتحان مرير وتحقيق شاق . فكمل مافيها من نقص ؛ وصحح ما شابها من خطأ .

فكل مظهر من مظاهر التفكير والمعرفة لا يمكن أن يكون دقيقاً إلا بعد خضوعه لتجارب الجماعة وامتحان الأجيال . والمجتمع هو الذى يصدر حكمه بالاستحسان أو الاستهجان ؛ بالقبول أو الرفض . أما أحكام الفرد فليس لها من الاعتبار والتقدير . وهذا يعنى من الوجهة المنطقية الواقعية أن الأفكار والظواهر فوق العضوية لا يمكن أن تقوم وتتأصل إلا بفضل تفاعل عقول الأفراد وتداخل آرائهم وتبادل وجهات النظر بينهم . وبدون ذلك لا يمكن أن تظهر . فكأن عامل « التفاعل والتداخل والآثار المتبادلة هو شرطها الضرورى والواقعى » .

(جـ) إن التقدم العقلى وتقدم التفكير والمعرفة أو بمعنى آخر تقدم الحضارة لا يمكن أن يكون ممكناً بدون « عامل التفاعل والتداخل » وتبادل الآثار والآراء لأجيال عديدة . لأن التجربة الفردية مهما كانت صحيحة فى ذاتها ، إذا ظلت مغلقة بدون تداخل وتفاعل فإنها سرعان ما تذوى وتنقرض . إذ كيف يتاح لها أن تنتقل إلى فرد أو بضعة أفراد آخرين أو إلى أجيال متعاقبة مالم يحملها عامل « التفاعل وتبادل الآثار » إلى هذه الآفاق البعيدة ؟ وفى ضوء هذا التحليل فإن نمو التفكير وتزايد المعرفة واستمرار جريان روافد الثقافة متوقف تماماً على هذه الظاهرة الخطيرة .

(د) من أهم مقومات وشروط العمليات النفسية الشعورية وجود مؤثرات عديدة مختلفة ومتغيرة . فإذا لم تكن المؤثرات على هذا النحو (كأن تكون على وتيرة واحدة مثلا) تحولت من عمليات شعورية إلى عمليات آلية لا شعورية . لأن الكائنات البشرية ، مثلها كمثل الكائنات الحيوانية الأخرى ؛ يمكن أن يصبحوا أو يعودوا إلى كائنات غريزية بدون تفكير أو حياة عقلية . ولما كانت هذه الظاهرة لم تحدث فى تاريخ الحياة الإنسانية ؛ فإن ذلك يرجع إلى الحياة الاجتماعية التى عاشها أسلافنا من البشر ؛ وإلى ظواهر التفاعل العقلى ؛ والآثار العقلية المتبادلة فيما بينهم ؛ وإلى تداخل المؤثرات وتنوعها وتغيرها على الدوام . هذا ؛ إلى ظروف البيئة الاجتماعية التى تمتاز بطبيعتها الحركية والتطورية . فهى التيار المستمر

والمعين الذى لا ينضب لخلق مؤثرات متنوعة وجديدة والعمل على زيادة تداخلها وتفاعلها ومن ثم كانت هذه العوامل حائلا دون تحول العادات الاجتماعية إلى غرائز ونكوص مظاهر التفكير إلى مجرد ظواهر نفسية حيوية . بيد أن عمل البيئة الاجتماعية لم يكن مقصوراً على أنها وقفت حائلا دون هذا النكوص بل أكثر من ذلك حاربت الغرائز وأجبرت الكائنات البشرية على أن تبذل مزيداً من الجهد للتكيف بالمؤثرات التى تخلقها باستمرار ، والتى تثيرها وتوقظها فيهم نظراً لتجدد وتنوع الظروف البيئية .

وينتهى « دى روبرتى » إلى القول بأن البراهين التى ساقها تكفى للتدليل على أنه بجانب العوامل البيولوجية ؛ فإن المؤثرات الاجتماعية وظروف البيئة شرطان ضروريان لظهور ونمو التفكير واطراد العمليات العقلية .

١٠ – ويستخلص « دى روبرتى » من هذا التحليل نتائج هامة وهى : أن الظواهر النفسية تعتبر نتيجة للمؤثرات الاجتماعية وليست سبباً قائماً بذاته . ولذلك فإنه من الخطأ أن نحاول تفسير الظواهر الاجتماعية عن طريق الظواهر النفسية . فإن هذا الخطأ يشبه تماماً الخطأ البالغ الذى نقع فيه عندما نفسر العلة عن طريق معلولاتها .

١١ – ويقول « دى روبرتى » فى ضوء الاعتبارات التى ذكرناها ؛ أنه يتفق مع أوجست كونت فى ضرورة إلغاء علم النفس وإلحاقه بعلمى الاجتماع والبيولوجيا . فقد كان أوجست كونت فى تصنيفه للعلوم على حق فى أنه وضع علم الاجتماع بعد علم الحياة مباشرة وألغى علم النفس . وقسم ظواهره قسمين : ألحق بعضها بالدراسات البيولوجية وألحق البعض الآخر بالدراسات الاجتماعية . فالظواهر النفسية إذن يمكن بكل سهولة تفسيرها فى ضوء العوامل البيولوجية الاجتماعية ؛ أما ظواهر المجتمع فلا يمكن بحال أن تفسر فى ضوء العوامل النفسية لأن هذه الأخيرة ترد بكل بساطة إلى البيولوجيا والفزيولوجيا وطبيعة الاجتماع الإنسانى .

١٢ – يقول « دى روبرتى » إن علم النفس فى نظرى على فرض قيامه ، ليس علماً مجرداً عاماً ، كعلمى الحياة والاجتماع ، ولكنه علم وصفى مادى يصف ويشرح عمليات نفسية مادية فى الإنسان مستخدماً فى ذلك حقائق علمى البيولوجيا والاجتماع . وهو فى طبيعته ووضعه العلمى « علم الجيـــولوجيا » فإنه كذلك علم وصفى مادى لايتناول إلا وصف الخواص الجيولوجيـــة والنوعية لطبقات الأرض مستخدماً حقـــائق علمى الطبيعة والكيمياء ، ومطبقاً القوانين العامة لعلوم الميكانيكا الطبيعية والحياة والكيمياء والطبيعة وما إليها .

وفى ضوء هذه الاعتبارات ، ندرك الخط الواضح الذى رسمه (دى روبرتى) فاصلا بين علم النفس وعلم الاجتماع . وندرك أيضاً إصراره على ضرورة تفسير الظواهر النفسية عن طريق القوانين والعوامل البيولوجية والاجتماعية . وتعتبر هذة النقطة مبـــدأ جوهريًّا فى النظرية الاجتماعية . أما الظواهر الاجتماعية فلا تفسر إلا فى ضوء عوامل اجتماعيـــة من طبيعتها ونوعيتها . أى أنه من الممكن تفسيرها فى ضوء تحليل عوامل « التفاعل والترابط وتبـــادل الآثار الاجتماعية » وهذه يمكن أن ترد إلى انطباعات وانعكاسات وتجسدات ترمز إلى المجتمع ذاته .

٦ – ماكسيم كوفالوسكى Maksim Kovalsvsky :

يعتبر العلامة « كوفالوسكى » أهم عالم اجتماع فى روسيا فى الفترة التى سبقت الثورة البلشفية . ولد فى ٢٧ أغسطس عام ١٨٥١ فى مدينة « خاركوف Kharkov » فى جنوب روسيا . وكان أبوه غنيًّا من أصحاب الإقطاعيات . درس فى مدارس بلدته وتخرج من كلية الحقوق بجامعة خاركوف عام ١٨٨٣ . وسافر بعد ذلك إلى غرب أوربا وقضى ثلاث سنوات فى برلين حيث تتلمذ على مشاهير فلاسفة الألمان وقام فى هذه المدة بأسفار كثيرة تعرف فى أثنائها على أعلام الفلاسفة فى ذلك الوقت أمثال هنرى مين وهربرت سبنسر وسيمل وكارل ماركس . وعند عودته إلى روسيا حصل على درجة الأستاذية (الماجستير) عام ١٨٧٧ وعين بعدها مباشرة أستاذاً بجامعة موسكو . وبعد ذلك بثلاثة أعوام حصل على درجة الدكتوراه . ونشر فى هذه الفترة مؤلفات كثيرة أهمها :

١ – انحلال المجتمعات الزراعية فى إقليم فود بسويسرا ونشره عام ١٨٧٦ .

٢ – الإدارة والتنظيم القضائى فى إنجلترا ونشره عام ١٨٧٧ .

٣ – المجتمعات الزراعية ونشره عام ١٨٧٩ .

٤ – التنظيم الاجتماعى فى إنجلترا فى أواخر القرون الوسطى ونشره عام ١٨٨٠ .

٥ – المنهج التاريخى المقارن فى دراسة الفقه (وشئون القضاء) .

ومنذ عام ١٨٨٦ كان يقضى فصل الصيف فى أودية القوقاز متوفراً على دراسة البيئة من الناحية الأثنولوجية والاجتماعية . وقضى فى هذه الدراسة ثلاث سنوات نشر فى أثنائها ثلاث مؤلفات وهى :

٦ – العادات الحديثة والقانون القديم ونشره عام ١٨٨٦ .

٧ – القانون البدائى ونشره عام ١٨٨٧ .

٨ – القانون والعادات فى بلاد القوقاز ونشره عام ١٨٩٠ .

وبالرغم من أنه كان حر التفكير ومتحرراً فى آرائه غير أنه لم يكن ثوريًّا . وركز محاضراته بجامعة موسكو فى القانون الدستورى وكان ينادى بأن الإصلاح الدستورى فى روسيا أمر لا مناص منه وتقتضيه مطالب الوعى السياسى فى البلاد . بيد أن هذه الدعوة لم تقابل بارتياح من جانب المسئولين فى زمانه ولذلك فصل فجأة من الجامعة .

ولما كان (كوفالوسكى) على جانب كبير من الغنى واليسار ويعيش مستقلا وأعزب ، فقد آثر أن يترك البلاد وقصد الأوساط العلمية الحرة فى العالم الخارجى . وكانت هذه التجربة بالنسبة إليه سهلة لأنه يتقن طائفة من اللغات الأوربية كالإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية . قصد أولا إستوكهلم وألقى فيها محاضراته ثم استقر فى باريس وقضى فى فرنسا قرابة خمس عشرة سنة ولم يتركها إلا لزيارة بعض الجامعات أو للقيام بدراسات فى بعض المجتمعات المتخلفة . فكان أستاذاً زائراً فى بروكسل وبعض جهات أوربا ، وزار الولايات المتحدة مرتين . وعين فى عام ١٨٩٥ وكيلا للمعهد الاجتماعى الدولى وأصبح عميده عام ١٩٠٧ .

وكانت المدة التى قضاها فى باريس هى أزهى فترة فى حياته العلمية وأكثرها إنتاجاً حيث توفر على البحث والدرس . وقد أتيح له أن ينشر فى هذه الفترة ثلاثة من أهم كتبه وأكثرها تركيزا وهى :

١ – النمو الاقتصادى لأوربا حتى قيام الرأسمالية ونشره فى ثلاثة أجزاء عام ١٨٩٨ – ١٩٠٣ . The Economic Growth of Europe up to the rise of Capitalism

٢ – أصل الديمقراطية الحديثة . وجاء فى أربعة أجزاء نشرت عام ١٨٩٥ – ١٨٩٧ . The Origin of Modern Democracy

٣ – من الديمقراطية المباشرة إلى الديمقراطية النيابية . وهو ثلاثة أجزاء ونشره عام ١٩٠٦ . From Immediate to Representative Democracy

ونشر فى هذه الفترة كذلك مقالات كثيرة . ووضع كتابين فى النظم الروسية الغرض منهما أن يصف ويشرح هذه النظم للعلماء غير الروس وهما :

النظام الاقتصادى فى روسيا ونشره عام ١٨٩٨ .

النظم السياسية الروسية ونشره عام ١٩٠٢ .

ويبدو أن الأحداث السياسية التى عصفت ببلاده بين عامى ١٩٠٤ و١٩٠٦ أتاحت له أن يعود إلى أرض الوطن ويتابع نشاطه الجامعى ودراسته الأكاديمية هناك . فعين أستاذاً فى جامعة بطرسبرج ، ومحاضراً فى الاقتصاد بالمعهد الهندسى فى المدينة . ثم شغل كرسى الأستاذية فى علم الاجتماع بمعهد الأمراض النفسية والعصبية الذى أنشأه العلامة «Bekhtereff» فى بطرسبرج .

وفى عام ١٩٠٦ انتخب نائباً فى أول مجلس نيابى عن دائرة « خاركوف » وهى مسقط رأسه ، بيد أنه لم يفز فى انتخابات الدورة الثانية . ولكن الحكومة كافأته بأن اختارته أحد الممثلين الستة الذين يمثلون الجامعات الروسية فى مجلس الدولة (وهو المجلس الروسى الأعلى) وقد بذل فى هذه الفترة جهداً شاقاً فى النشاط التشريعى هذا بالإضافة إلى رئاسته لكثير من الهيئات العلمية والمؤسسات الخيرية .

بيد أن هذه المسئوليات والمهام على خطورتها لم تجعله يعتزل نشاطه العلمى . فظل دائب الدرس والبحث والإنتاج . وركز اهتمامه فى أخريات حياته فى علم الاجتماع . وكان هذا الاهتمام تتويجاً لحياته العلمية الطويلة التى كرسها لدراسة مختلف مظاهر النشاط الاجتماعى . وفى عام ١٩٠٥ نشر كتاباً عنوانه « علماء الاجتماع المعاصرون » والكتاب فى مجموعه عبارة عن شرح وتحليل ونقد النظريات الاجتماعية حتى عهده . وابتدأ منذ عام ١٩١٠ فى نشر كتابه « علم الاجتماع » وجاء فى أربعة أجزاء . وأخذ منذ عام ١٩١٣ ينشر بالاشتراك مع العلامة « سروكن » وآخرين سلسلة من المقالات العلمية عنوانها « أفكار جديدة فى علم الاجتماع » «New Ideas in sociology»

ومنذ عام ١٩١٤ اعتلت صحته وزاد عليه مرض القلب فقصد كارلسبارد ومدن النمسا للعلاج ولما قامت الحرب العالمية الأولى اعتبر أسيراً مدنياً وقد تم إطلاق سراحه بفضل تدخل بعض أصدقائه البارزين أصحاب النفوذ السياسى . وقد أسهم الرئيس ولسن فى

تخليصه من براثن الأسر . غير أن موته كان متوقعاً لاشتداد وطأة المرض عليه ، وسرعان ما لقى حتفه فى ٢٣ مارس عام ١٩١٦ . وكان تشييع جنازته حدثاً قومياً فقد خسرت روسياً بوفاته عالماً ضالعاً من أفلاذ أكبادها المخلصين للعلم. وقد خلدت الهيئات العلمية ذكراه . فنشرت فى العام التالى لوفاته كتاباً يعرض تاريخ حياته ومؤلفاته ونظرياته مع مقدمات وشروح وتحليل لبعض مواقفه العلمية عنوانه [1] .

A symposium In Memirian of M. M. Kovalevesky

أشهر نظرياته

أولاً – رأيه فى علم الاجتماع :

عرف علم الاجتماع تعريفات كثيرة واستقر أخيراً على تعريفه « بأنه علم التنظيم والتغير الاجتماعى» وأهم ما يعنى به العلم هو دراسة العقلية الجمعية فى علاقتها الوثيقة بالتنظيمات والتطورات الاجتماعية . ومنهجه فى هذه الدراسة هو تجريد الحقائق الكلية من الجزئيات المحسوسة وإبراز القوانين العامة والقضايا الجوهرية التى يرتكز عليها الاستقرار والتغير الاجتماعى .

وهو بصدد دراسة موضوع العلم ؛ يقارن بين التطور والتقدم ؛ وبين التنظيم والنظام . فيقول إنه من المستحيل أن نقرر أن التطور يهدف دائماً إلى علاج الأمراض الاجتماعية وتحقيق الإصلاح المنشود وزيادة الرفاهية والإنعاش الاجتماعى . فليس ثمة تلازم بير التطور والتقدم . وكذلك من الخطأ أن نقرر أن كل تنظيم هو نظام ؛ فليس ثمة نظام فى روسيا القيصرية .

ويحدد (كوفالوسكى) ميدان علم الاجتماع بالنسبة للعلوم الاجتماعية الخاصة فهو العلم الكلى العام وهى فروعه . وهو بهذه الصفة لا يستعير مبادئه وقضاياه من هذه العلوم الجزئية ؛ بل بالعكس هو الذى يعينها على الاستقلال ويدعم مباحثها بما ينتهى إليه من قوانين أكثر عمومية . غير أنه يعود إليها من حين لآخر وذلك بقصد الانتفاع بآخر مظاهر التغير والتطور فى أهم القطاعات الاجتماعية مثل الدين والقانون والاقتصاد

(1) Barnes, Introduction to the history of Sociology p. 444.

والسياسة والفن والجمال . أى أن العلوم الاجتماعية الخاصة بالرغم من أنها تمد علم الاجتماع العام بمادة زاخرة تخدم غرضه التركيبي العام ؛ فهى فى الوقت نفسه ترتكز على القوانين الاجتماعية العامة وترسى حقائقها على المبادئ والتجارب والتعميمات التى يصل إليها علم الاجتماع من دراسة ظروف الحياة الاجتماعية ومبلغ تقدمها[1] .

ويرى أن علم الاجتماع هو العلم الوحيد الذى يستطيع كشف قوانين التقدم الاجتماعى ومظاهر هذا التقدم ؛ ويستطيع كشف العلاقات المتبادلة بين مختلف هذه المظاهر سواء فى مجتمع واحد أو بين مجموعة من المجتمعات المتباينة فى مقوماتها وخصائصها . وهو العلم الذى يرشدنا إلى أن النظام غير ممكن بدون تقدم ، وأن التقدم هو عبارة عن تغيرات تاريخية إيجابية فى البنيان الاجتماعى والاقتصادى . وهو العلم الذى يصور لنا نمو الشعوب ومبلغ ما تخطوه من وثبات .

وأخيراً إن علم الاجتماع هو وحده العلم الذى يستطيع أن يضع لنا المعايير الموضوعية لتقييم القانون الوضعى وتقدير أهميته[2] .

ثانياً – التطور الاجتماعى :

درس (كوفالوسكى) موضوع التطور وحدد مراحل التطور الاجتماعى وحاول الوصول إلى القوانين الذى تنتظمه ووضع قواعد المنهج التى يجب أن تتبع بصدد هذه الدراسة . وقرر أن الدراسة التاريخية المقارنة ضرورية للوصول إلى هذه القوانين . إذ بفضل مقارنة تطورات متشابهة وتحليلها يمكن كشف التعميمات والمبادئ التى تنطوى عليها . أما مجرد الاقتصار على دراسة أبسط أشكال الظاهرة فلا يؤدى إلى كشف علمى محقق . وينصح بالسير وفق الاعتبارات الآتية :

١ – دراسة النظم دراسة تاريخية مقارنة مع الاستعانة بالدراسات الأتنلوجية .

٢ – دراسة الحقائق فى طبيعتها وتطورها وفى بنيانها الاجتماعى القائم .

٣ – الكشف عن الماضى لأنه هو الذى يحمل جراثيم التطور فى الحاضر والمستقبل .

---

(1) Kovalevsky : Contemporary Sociologists, p. 283.

(2) M. Kovalevsky : Sociology p. 68.

٤ – الكشف عن وجوه التشابه والتباين وتحليلها .

٥ – تصنيف المتشابهات وترتيب الحقائق المماثلة فى مقولات (categories) تبعاً لدرجات تطورها .

٦ – تقريب الأشكال الحاضرة من أصولها البدائية لأننا نقرأ فى هذه الصور الحاضرة (بشكل أو بآخر) صورة لأصول النظم البدائية . وبفضل هذا التقريب ؛ نستطيع تحديد « درجة النسبية » فى الحالة الماثلة أمامنا بين صورتها البدائية ومبلغ ما قطعته من تطور .

ثالثاً – دراساته الإثنجرافية والانثروبولوجية وعلاقتها بالتطور :

أمضى مدة طويلة فى بلاد القوقاز . ودرس أثناءها العشائر التى تعيش بين هضابها ومرتفعاتها . وهى عشائر عاشت بمنأى عن تيارات الحضارة الروسية وتمثل فى حياتها الاجتماعية البدائية الأولى إلى حد كبير . وقد أفادته هذه الدراسة فى الوصول إلى أصل الأسرة الإنسانية وكشف كثير من أصول النظم الاجتماعية . هذا ، إلى كشف قوانين عامة تتعلق بالتطور والتغير الاجتماعى فى ذاته .

ووصل العلامة (كوفالوسكى) من تحليله لأصول النظم إلى أن نظام « المعشر Hord» هو أقدم تنظيم اجتماعى . وعن طريق التزاوج من الخارج نما هذا الشكل واتسع نطاقه ووصل إلى النظام الذى كان معروفا عند اليونان والرومان القدامى بنظام «Glan » وفى نطاق هذا النظام ، ظهر نظام العشائر «Gens» وعندما نمت واتسع نطاقها ؛ انشعبت إلى عائلات مستقلة Matrileancal family وبطون . وقد كان هذا الانشعاب فى أول مظاهره على أساس الانتماء إلى الأم ويسميه (Cognatic) ، ثم أصبح على أساس القرابة إلى العصب ويسميه (Agnatic). وفى نطاق هذه النظم الأسرية تطورت أشكال الزواج والطلاق وطبقات المحارم والتابو وما إلى ذلك من الظواهر الأسرية التى لا تزال راسبة حتى الآن فى نظمنا الحاضرة .

وعاشت هذه الجماعات فى أول أمرها على الصيد والرعى . وسرعان ما انتقلت من الحالة الرعوية إلى حالة الاستقرار بعد اكتشاف الزراعة ثم مزاولة الصناعة البدائية .

وبعد أن تحلل نظام (الجنس Gens) حل محله نظام إقطاعى feudal order وكان هذا النظام منتشراً بين شعوب كثيرة وفى عصور مختلفة . فقد وجد فى غرب أوربا وفى الإمبراطورية البيزنطية وفى روسيا وفى العالم الإسلامى وفى بلاد اليابان . غير أن تطورات تاريخية اجتماعية أدت إلى انتقال المجتمعات إلى المرحلة القومية ؛ ومن ثم قامت الديمقراطية وهو آخر ما نعرفه من تطور . وكانت هناك مظاهر قوية ملازمة لهذا التطور . فقد كان مصحوباً بالانتقال من اللامساواة إلى المساواة ؛ ومن الخضوع لسيطرة الحكومة وتدخلها إلى التحرر والسعى وراء تحقيق المصالح الجماعية المشتركة . وهذا التطور لم يكن عملية مفروضة على الأجزاء تحت ضغط عامل واحد ؛ فهناك عوامل كثيرة تتضافر وتتكامل فى خلق عملية التطور . فقد كان كوفالوسكى من أشد أعداء النظريات الفردية فى علم الاجتماع التى كان زمانه حافلا بها — وهى نظريات ترد التطور إلى عامل منفرد . فالتطور فى نظره يرجع إلى عدة عوامل متضافرة ؛ ونظريته على هذا النحو ليست نظرية فردية ولكنها تجمع بين اتجاهات كثيرة (Pluralistic).

وهو بصدد دراسة عوامل التطور ضغط على نمو العامل الديموجرافى وزيادة السكان وأثر ذلك فى النواحى الاقتصادية . وقرر أن هذا العامل هام جداً فى التطور الاجتماعى ؛ بيد أن أثره لا يبدو واضحاً إلا فى ارتباطه بعوامل اجتماعية أخرى مثل تحسين النسل وضبطه والتقدم الصحى وارتقاء المعايير الأخلاقية والدينية ؛ ولا ينكر كذلك أثر العوامل السياسية والاقتصادية . فكل هذه العوامل تتضافر فيما بينها وتتبادل آثارها وتتجه وفق اتجاه جمعى غائى لإحداث التطور .

وبعد أن ينتهى من مناقشة عوامل كثيرة تتفاعل فى عملية التطور ؛ يقرر أن هذه العملية ترتكز فى آخر تحليلها على مبدأين أو دعامتين :

أولا : تعتبر هذه العملية نتيجة لمظاهر التجديد والاختراع والمحاكاة والتكيف . وهذه الفكرة تقربه إلى حد كبير من العلامة الفرنسى تارد صاحب الاتجاه النفسى فى دراسة الظواهر الاجتماعية .

ثانياً : وتعتبر العملية نمواً تدريجياً متزايداً وتحسناً ارتقائياً فى قواعد السلوك . وهذه الفكرة تقربه إلى حد كبير من « السلوكيين » وعلماء التربية والأخلاق . ويقرر

(كوفالوسكى) أن هاتين الدعامتين مرتبطتان ويعملان بالتناسق فى عملية التغير والتطور الاجتماعى .

هذه هى مجمل الآراء التى انتهى إليها (كوفالوسكى) . وهى تدلنا على أنه كان خصب الإنتاج ، بيد أنه لم يكن أصيلا فى معظم ما انتهى إليه ؛ ولم يدرس بعمق مسائل لها شأنها. وجاءت بحوثه فى بعض أجزائها شيئاً معاداً . فقد عالج بعض الموضوعات بالطرق المألوفة والأسلوب المتواتر . ولكن يمكننا أن نخرج من دراسته بشىء جديد وهو أنه خرج على التقليد الروسى فى الدراسة ؛ وهو الخلط بين العلم والسياسة ووضع القضايا العلمية فى خدمة المطالب السياسية . فقد كسر هذه التقاليد وخرج عليها وبنى منهجه العلمى على الاعتبارات العلمية ودراسة أصول وتاريخ النظم الاجتماعية والتشريعية والاقتصادية . ولم يقم للاعتبارات السياسية كبير وزن . وقد أشرت فيما سبق إلى أن هذا الاتجاه العلمى الواضح سبب له متاعب كثيرة فقد أدى إلى فصله من الجامعة فى مستهل حياته العلمية .